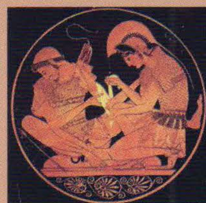
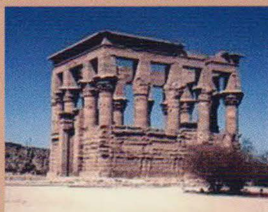
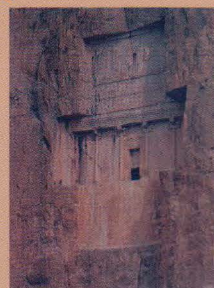
صفحات

العبادات

في الديانات القديمة

المصرية - العراقية - الرومانية - الهندوسية
البوذية - الصينية - الزرادشتية - الصابئية





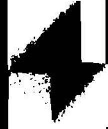

عبد الرزاق رحيم صلال الموحي

العبادات

في

الدّيانات القديمة

نحو فكر حضاري متجدد



الإصدار الثاني 2012م



صفحات للدراسات والنشر

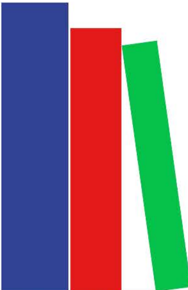
سورية - دمشق - ص.ب: 3397

هاتف: 095 13 22 11 00963

تلفاكس: 013 33 22 11 00963

www.darsafahat.com
info@darsafahat.com

الإشراف العام: يزن يعقوب /جوال 181 418 933 00963



عبد الرّزاق رحيم صلال الموحي

العبادات

في

الدّيانات القديمة

المصريّة القديمة - العراقيّة القديمة - اليُونانيّة القديمة

الرُّومانيّة القديمة - الهندوسيّة - البُوذيّة

الصّينيّة - الفارسيّة القديمة (الزّرادشتيّة) - الصّابئيّة

الفهرس

بين يدَيْ الكتاب 7

التّمهيد 9

المبحث الأوّل:

العبادات في الدّيانات المندثرة 17

المطلب الأوّل : العبادات في الدّيانة المصريّة القديمة 18

المطلب الثّاني : العبادات في الدّيانة العراقيّة القديمة 25

المطلب الثّالث : العبادات في الدّيانة اليونانيّة القديمة 30

المطلب الرّابع : العبادات في الدّيانة الرّومانيّة القديمة 35

المبحث الثّاني:

العبادات في الدّيانات الحيّة 40

المطلب الأوّل : العبادات في الدّيانة الهندوسيّة 41

المطلب الثّاني : العبادات في الدّيانة البوذيّة 45

المطلب الثّالث : العبادات في الدّيانة الصّينيّة 49

المطلب الرّابع : العبادات في الدّيانة الفارسيّة القديمة (الزّرادشتيّة) 52

المطلب الخامس : العبادات في الدّيانة الصّابئيّة 57

بين يدَيْ الكتاب

الحمد لله الذي لا يُؤدَّى شكر نعمة من نعمه إلاَّ بنعمـة منـه تُوجـب على مُؤدّى ماضي نعمة بأدائها، نعمة حادثة يجب عليـه شُكره بـها[1]، والصّلاة والسّلام على هادي البشريَّة إلى النُّور بعد الظّلام، شفيعنا يـوم الدِّين، والمرشد إلى الصّراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النَّبيِّين، والصِّدِّيقين، والشُّـهداء، والصّـالحين، وحَسُـنَ أولئك رفيقاً، وبعد. . .

فإنَّ الدِّين عند الله الإسـلام: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾[2].

فالإسلام منهج متكامل للحياة، تقوم فلسفته علـى أُسُس متينة، دعائمها الإيمان بـالله الواحـد الأحـد، وبالملائكـة، والكُتُـب السّماويَّة، والرُّسُل، وبالقضاء والقدر، واليوم الآخـر، هـذه الدّعـائم التـي انطلـق منها المُسلم نحـو مفـهوم واسـع للحيـاة، مُحبّاً للخير، ومُقاوماً للظُّلـم ﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾[3].

---

(1) من خُطبة للإمام مُحَمَّد بن إدريس الشّافعي، تفصيل آيات القرآن الكريم، ص660.

(2) سورة آل عمران، آية 85.

(3) سورة الأنفال، آية 39.

إنَّ التّباين الواضح في المعالم في سلوك الأمم والشُّعُوب القديمة والحديثة، والتي عبَّرتْ عنها معتقداتهم في أديانهم، وبالأخصِّ جانب العبادات، وكذلك نَقْص مكتبتنا الإسلاميَّة بفرائض سنَّها الله جلَّ وعلا على جميع خَلْقه، كُلُّ ذلك ـ بالإضافة إلى أسباب أُخرى ـ هو الذي دفعني إلى اختيار موضُوع الدّراسة ـ العبادات في الأديان القديمة ـ لأتبيَّن لنفسي، ولأُبيِّن لأبناء جلْدتي الحقائقَ التي خفيتْ على كثير منهم، والتي أدَّت إلى التّباين في نمط العبادات بكُلِّ أبعادها، فَأَبْعَدَتْهُم عن بعضهم بعضاً.

لقد اتَّبعتُ الأسلوبَ الموُضُوعي في العرض والتّحليل في كتابي هذا من خلال النَّصِّ المنقول تارةً، والمُعايشة الميدانيَّة تارةً أُخرى.

تحدَّثتُ فيه على العبادات عند الشُّعُوب والحضارات القديمة، مُركِّزاً على الدّيانتَيْن الزّرادشتيَّة والصّابئيَّة، نَظَراً لما لعُلماء الأديان المُسلمين من وُجهات نَظَر مُتباينة في كونهما ديانتَيْن سماويَّتَيْن، أو غير سماويَّتَيْن.

التّمهيد:

احتلَّتْ العبادات والطُّقُوس الدِّينيَّة المُختلفة مكاناً بارزاً ومُؤثِّراً في حياة الأمم القديمة، ممَّا انعكس ذلك إيجاباً على سيرتها الحضاريَّة، فَعُدَّ العامل الدِّيني من أقوى العوامل التي ساهمت في تحديد الأُطُر العامَّة للعادات والتّقاليد والأعراف والقوانين، كما أنَّ له أثره - إجمالاً - في صياغة أُسُس الحياة[1].

إنَّ الإنسان القديم قد عَرَفَ العقيدة الدِّينيَّة مُنذُ أنْ وطئت قدماه الأرضَ، وَوَضَعَ العُلماء للمُقابلة بين الأديان ثلاثة أطوار مرَّت بها الأمم البدائيَّة في اعتقادها بالآلهة والأرباب هي:

1 - دور التَّعدُّد.

2 - دور التّمييز والتّرجيح.

3 - دور الوُجدانيَّة[2].

---

(1) طه باقر، د. عامر سليمان، د. فاضل عبد الواحد علي، تاريخ العراق القديم، ص5، مطبعة جامعة بغداد - 1980.

(2) العقَّاد، عبَّاس محمود، موسوعة عبَّاس محمود العقَّاد الإسلاميَّة - المُجلَّد الأوَّل، توجيد وأنبياء، ص41، ط1، دار الكتاب العَرَبي، بيروت، 1970.

وجاء في معجم لاروس للقرن العشرين :

(إنَّ الغريزة الدِّينيَّة مُشتركة بين الأجناس البشريَّة، حتَّى أشدّها همجيَّة وأقربها إلى الحياة البدائيَّة . . وإنَّ الاهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطّبيعة هو إحدى النّزعات العالميَّة الخالدة)[1] .

ويقول الفيلسوف المُؤرِّخ الفرنسي (هنري جُونسون): « لقد وُجدَتْ ـ وتوجد ـ جماعات إنسانيَّة من غير علوم وفنون وفلسفات، ولكنْ؛ لم توجد ـ قطُّ ـ جماعة بغير معابد »[2] .

وحلَّتْ صفة الإله محلَّ الإله، وتجسَّمتْ هذه الصّفة في شخص بشري مثل تجسيم صفة تدبير الكون في شكل (فشنو)، وصفة الجبروت في شكل (سيفا) كما تدَّعي الأساطير الهنديَّة[3] .

وَنَظَراً لعجز بعض العقول عن إدراك المعجزات والأعمال الخارقة للعادات والبركات على يد بعض النّاس، فقد صوَّروا هؤلاء النّاس على أنَّ روحاً إلهيَّة قد حلَّتْ فيهم، فولدت بذلك الألوهيَّة البشريَّة، والبشر الإله؛ مثل عبادة بوذا، وعيسى عليه السّلام، وعلى الرّغم من أنَّه لم يرد عنهما أنَّهما سمَّيا نفسَيْهما بالإله، أو أنَّهما أمرا أحداً ببناء الأصنام[4] .

---

(1) دراز، مُحَمَّد عبد الله (د.) الدِّين، بحوث مُمهِّدة لدراسة تاريخ الأديان، ص84، مطبعة السّعادة، مصر، نقلاً عن:

Larousse du - Xxeme, Siecle article reliegion.

(2) الشّريف، محمود (د.)، الأديان في القرآن، ص12، دار المعارف نقلاً عن:

Henri Bergson, Les Deus Sources de la Moral et de la Religion p. 105.

(3) التّفكير الدِّيني في العالم قبل الإسلام، عرض وترجمة وتعليق د. رؤوف شلبي، ص34.

(4) التّفكير الدِّيني في العالم قبل الإسلام، ص34.

وسُرعان ما أَرْجَحَ الفكرُ البشري ظاهرةَ التَّديُّن، وأسندها ـ في أصلها ـ إلى مبدءَين مُرتكزَيْن في بداهة العقول؛ وهما (قانونا السّببيَّة والغائيَّة)[1]، وعندما يتفهَّم الإنسان هذَين القانونَيْن بصورة صحيحة، فإنَّها تُوصل إلى عقيدتَيْ التّوحيد والخلود، رغم أنَّ البشريَّة ـ مُنذُ القدم ـ تعرَّفت إلى خالقها الأوحد عبر فطرتها السّليمة.

وخلال المسيرة البشريَّة للحياة على الأرض لم ينفكّ الإنسان في عباداته عن مُمارسة شعائر الصّلاة والصّيام وتقديم الزّكاة والوفود على الأماكن المُقدَّسة، تعظيماً لها وتوقيراً. فَتَذَلُّلُه وخُشُوعه ودُعاؤه لمعبوده صلاة في هيئتها الأولى، ثُمَّ اقترب إلى الله بتقديم القرابين والنُّذُور، تعبيراً عن طاعته واحترامه للآلهة، كما شارك صيامه في أيَّام شبه مُحدَّدة مراسم التَّعبُّد، مُضفياً عليها الرّحمة والتّوادد، من خلال تقديمه الزّكاة والصّدقات للكَهَنَة خَدَمَة المعبد، وللفُقراء مُنمِّياً حسَّه الفطري الإنساني بمُساعدة الآخرين، كما أعلن ولاءه المطلق لمعبوده، مُجتمعاً مع بني جنسه في شعيرة من أكثر الشّعائر الإيمانيَّة اجتماعاً وتوحيداً للمخلوق الأوحد، ففي الحجّ تصدحُ الحناجر بهتاف واحد بالوحدانيَّة والإقرار بالعبوديَّة الحقَّة لمَنْ له الفضل في الخَلْق والإيجاد والتّعظيم والتّقديس.

إنَّ الغرض من العبادات تُمثِّلها حقيقتان: أوَّلهما تُنبِّه الإنسان على الدّوام بأنَّ العبادات تعني وُجُوده الرُّوحي الذي ينبغي أنْ تشغله طيلة وقته بمطالب غير مطالبه الجسديَّة، وغير شهواته الحيوانيَّة،

---

(1) الدِّين، د. مُحَمَّد عبد الله دراز، ص109.

والحقيقة الثّانية من العبادة المُثلى التي تنبَّه إليها ضميره هو الوُجُود الخـالد الباقي إلى جنب وُجُوده الزّائل المحدود في حياته الفرديَّة[1].

إنَّ تأدية العبادات ـ بصورة عامَّة، والصّلاة خاصَّة ـ إنَّما جاءت من إيمان الإنسان قديماً بوُجُود قُوَّة إلهيَّة غيبيَّة تسيطر عليه، وعباده كـهذه نجدها في سفْر التّكوين على شكل عرض القرابين من قبَل قايين (قابيل وهابيل) (وَحَدَثَ من بعد أيَّام أنَّ قـايين قـدَّم مـن أثمـار الأرض قُرباناً للـرَّبِّ، وقـدَّم هـابيل ـ أيضـاً ـ مـن أبكـار غنمـه، ومـن سـماتها، فَنَظَـرَ الـرَّبُّ إلـى هـابيل وقُربانه، ولكنْ؛ إلى قايين وقُربانـه لـم ينظـر، فاغتـاظ قـايين جـداً، وسـقط وجهه)، وهناك صلوات أُخرى يذكرها العهد القديم من هذا القبيل[2].

وبعـد نـزول الوصايـا العشـر والشّريعة علـى كليـم الله موسـى عليـه السّلام، بـدأ تقنـين العبـادات، وجعلـها أكثر وُضُوحاً مـن قبـلُ، بعدمـا توضَّحـت الألوهيَّـة الحقَّـة للبـارئ تعـالى، فحُـدِّدت للصّـلاة أوقـات وأشكال. كما ظـهرت حُدُود الزّكـاة بالعُشُـور مـن الأمـوال العينيَّـة وغـير العينيَّة، وبانت أيَّام الصّوم تحديداً وكيفيَّة، وظهرت الأماكن المُقدَّسة التـي يَؤُمُّها المُؤمنون لتعزيـز الرّابطـة الرُّوحـيَّ، وشـدّها أكثر ببارئـها مـن خـلال طاعتهم لأوامر الأنبياء والرُّسُل في استخلاص الدُّروس والعـبَر مـن عبير تلـك الأمـاكن التـي شـهدت تجلِّيـات ربَّانيَّـة مُفْعَمَـة بعَبَـق الإيمـان بـربٍّ السّماوات والأرض. وعمَّقتْ الدّيانـة المسيحيَّة الحقَّـة بعباداتـها الرَّبَّانيَّـة

---

(1) العقَّاد، عبَّاس محمود، حقائق الإسلام وأباطيل خُصُومه، ص 110، مطبعة مصر، ط1، 1376 هـ ـ 1957م.

(2) انظر سـفْر المُلُوك الأوَّل، 8/ 22، وسفْر المُلوك الثّاني، 20/ 2، وسـفْر العـدد، 12/ 12، وسفْر عَزْرَا، 9/ 6.

الرُّوحيَّة في نُفُوس مُعتنقيها مفهوم الوحدانيَّة المُطلقة لله تعالى، والتي جاءت كثورة رُوحيَّة على الماديَّة اليهُوديَّة المقيتة، التي كانت سائدة آنذاك، لينتشل السيِّد المسيح عليه السّلام المبادئَ والقيَمَ التي جاءت بها الدّيانة اليهُوديَّة من عبث أحبار اليهُود بها، وتحريفهم إيَّاها، وأكمل حواريُّو المسيح عليه السّلام المشوارَ من بعده بصبر وَجَلَد، إلى أنْ بَعَثَ اللهُ حبيبه وأمينه الرّسول الكريم مُحَمَّداً صلَّى الله عليه وسلَّم برسالة سماويَّة مُتكاملة، تجلَّت فيها أركان الإيمان ودعائم السّلام، وفيها العبادات المرسومة بخطٍّ جلي من غير لبس وغُمُوض، يُؤدِّيها المُسلم من غير عناء وصُعُوبة، وهي مُوافقة لمُتطلَّبات حياته الرُّوحيَّة ونُظُمه الحياتيَّة الاجتماعيَّة، فهو يُؤدِّي صلوات خمس لربِّه بخُشُوع وإيمان، وهي وسط بين الصّلوات اليهُوديَّة والمسيحيَّة، كما أنَّه يُؤدِّي الزّكاة بنصبها المعهود من غير أنْ يُؤثِّر إخراجه لها على مدخوله المادِّي؛ إذْ إنَّ نسبتها البسيطة لا تُؤثِّر على مُدَّخراته الماليَّة. وحُدِّدتْ أيَّام الصّوم بشهر رمضان المُبارك، وهو حَدٌّ ليس بالقلَّة القليلة التي ادَّعى بها اليهُود بصوم يوم واحد، ولا بالكثرة المُفرطة استحباباً عند المسيحيِّين، ناهيك عن عدمه. أمَّا الحجُّ؛ فقد حُدِّدَ إلى الكعبة الشّريفة، كعبة خليل الله إبراهيم عليه السّلام.

وهكذا أنزل الله ديناً واحداً على النّاس جميعاً هو الإسلام: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾ [1] وهذا ما جاء به كُلُّ الأنبياء عليهم السّلام [2]، بل إنَّ القرآن يُقرِّر أنَّ الإسلام هو دين أهل السّموات

(1) سورة آل عمران، الآية 19.

(2) انظر الآيات: (سورة آل عمران، آية 19)، (سورة البقرة، آية 127 ـ 132)، (سورة يونس، آية 71 ـ 72)، (سورة البقرة، الآية 133)، (سورة الذّاريات، آية 31 ـ 36)، (سورة يُوسُف، الآية 101).

والأرض، وقال تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾[1].

وإلى هذا الدِّين وحده وجَّه الرّسول الكريم رسائلَهُ إلى المُلُوك والرّؤساء، وأشهدهم على إسلامه، وإسلام مَنْ معه، ومن قبله أيضاً، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[2].

وعُرِّفَ الدِّين بأنَّه (الاعتقاد بوُجُود ذات ـ أو ذوات ـ غيبيَّة عُلْويَّة، لها شعور واختيار، ولها تصرُّف وتدبير للشّؤون التي تعني الإنسان، اعتقاد من شأنه أنْ يبعث على مُناجاة تلك الذّات السّاميَّة في رغبة ورهبة وفي خُضُوع وتمجيد)[3].

ويرى الدُّكتُور دراز أنَّ التَّديُّن يخلق في الإنسان عنصراً نبيلاً سماويّاً، وأنَّ هذا العنصر خُلق للبقاء والخُلُود[4].

(1) سورة آل عمران، الآية 83.

(2) سورة آل عمران، الآية 64 ـ 67.

(3) الدِّين، بحوث مُمهِّدة لدراسة تاريخ الأديان، د. مُحَمَّد عبد الله دراز، ص144، رشدي عليَّان (د)، سعدون محمود السّاموك، الأديان، دراسة تاريخيَّة مقارنة، ص25. دار الحُرِّيَّة، بغداد، 1976.

(4) الدِّين، د. مُحَمَّد عبد الله دراز، ص99، بتصرُّف.

وحاول الإنسان جاهداً في جميع طُقُوسه التَّعبُّديَّة، أنْ يُوجد له شعائر نُسكيَّة، تبعث في نفسه الرّاحة والاطمئنان، وتُؤمِّن له العيش بسلام في وسط مُحيط تُحيط به الأخطار من كُلِّ جانب، فآمن بعقائد دينيَّة مبعثها الخوف من الظّواهر الطّبيعيَّة والحيوانات المُفترسة.

ويعزو الباحثون في الفكْر الدِّيني القديم الشَّبَهَ في العقائد الدِّينيَّة القديمة المنتشرة بين الأمم إلى عامليْ الأصالة والانتشار[1]، ممَّا حدا ببعض الباحثين المُلحدين إلى استغلال فكرة الأصالة لإثبات أنَّ عقيدة الألوهيَّة ما هي إلاَّ عرض مادِّي طارئ على الفكر البشري، اخترعها مجموعة من الكَهَنَة والقساوسة ليُقنعوا بها العُمُوم السُّذَّج من النّاس، ولكنْ؛ سُرعان ما اختفت هذه النّظريَّة بعد أنْ اكتشف الإنسانُ المزيدَ من عقائد الأمم القديمة التي تُبيِّن أنَّ فكرة التَّديُّن فكرة قديمة مُشاعة لم تخلُ منها أُمَّة من الأمم في القديم والحديث، رغم تفاوتهم في مدارج الرُّقي ودَركَات الهمجيَّة[2].

ومن خلال مرحلة من مراحل التَّطوُّر العقلي للإنسان تصوَّر أنَّ في مقدوره تسخير بعض الظّواهر الطّبيعيَّة، وكان ذلك بداية الاعتقاد بقُوَّة السِّحْر القائم على مبدأ التّشبيه والمُحاكاة[3]. ولهذا كان إنسان العصر

---

(1) عامل الأصالة يُقصَد به اعتقاد الإنسان القديم بقوى خارقة تُسبِّب للإنسان الموتَ غير الطّبيعي؛ مثل المرض، وعامل الانتشار يُقصَد به علاقات الإنسان الاجتماعيَّة، وتعرُّفه إلى بني جنسه من خلال شتَّى وسائل الاتِّصال، راجع: الدَّبّاغ، تقي، الفكر الدِّيني القديم، ص5، دار الشّؤون الثّقافيَّة العامَّة ببغداد، 1992.

(2) الدِّين، د. عبد الله مُحَمَّد دراز، ص83.

(3) أيْ اعتقاد الإنسان القديم بإمكانيَّته استحداث الأشياء والظّواهر الطّبيعيَّة عن طريق تقليدها.

الحجري يمارس طُقُوساً سحْريَّة، ويُؤدِّي حركات تنكُّريَّة، يتقمَّص - من خلالها - ظاهرة طبيعيَّة مُعيَّنة، أو شيئاً مُحدَّداً أصبحت الحاجة مُلحَّة لوُجُوده[1].

وبمرور الزّمن؛ توسَّعت مداركه العقليَّة، فانتقل إلى مرحلة أُخرى في التّفكير، والمُتمثِّلة (بمرحلَتَيْ الحيويَّة والطّوطميَّة)[2]، فالأولى تُمثِّل الإيمان بأنَّ للرّوح الموُجُودة في كُلِّ كائن - حيوان أو جماد - قُوَّة وقُدرة وتأثير على مجريات الأحداث اليوميَّة، وأنَّ الأرواح عبارة عن كائنات تتَّصل بالنّاس، وأنَّ جميع ما يُصيب النّفس الإنسانيَّة من نجاح وتوفيق إنَّما مردُّه إلى تلك الأرواح أو العالم الرُّوحي. أمَّا التّوتميَّة؛ فتُمثَّل بالرّمز الذي اتَّخذته العشائر البدائيَّة لنفسها؛ سواء أكان مُستمداً من المملكة الحيوانيَّة، أم النّباتيَّة، أم القوى الطّبيعيَّة، أم الجماد[3].

ولكنْ؛ سُرعان ما اختفت هاتان المرحلتان. وفي لحظات من التَّعبُّد عجز الإنسان عن تركيز التّفكير في عَظَمَة الإله، فَصَنَعَ الآلهةَ الأصنامَ، ليشاهد فيها بالبَصَر ما عجزت عن مُشاهدته البصيرة[4].

---

(1) تاريخ العراق القديم، طه باقر، د. عامر سليمان، د. فاضل عبد الواحد علي، ص5 - 6.

(2) المذهب الحيوي يُنسَب إلى العالم الإنجليزي (تايلور)، وهو يُمثِّل تنبيه الإنسان الأوَّل إلى الرّوح، واعتقد بأنَّ للموجُودات الأُخرى أرواحاً عبارة عن كائنات تتَّصل بالنّاس، وأنَّ ما يُصيب النّفس الإنسانيَّة من نجاح وتوفيق، أو من آلام ومصائب إنَّما يرجع إلى تلك الأرواح، أو العالم الخارجي، أمَّا التّوتم؛ فهو الرّمز الذي تتَّخذه العشائر البدائيَّة لنفسها؛ سواء كان مُستمداً من المملكة الحيوانيَّة، أم النّباتيَّة، أم القوى الطّبيعيَّة، أم الجماد، انظر الأديان، ص32 - 33.

(3) الأديان، دراسة تاريخيَّة مقارنة، د. رشدي عليَّان، سعدون السّاموك، ص32 - 33.

(4) شلبي، رؤوف (د.)، التّفكير الدِّيني في العالم قبل الإسلام، عرض وترجمة وتعليق، ص33، دار الثّقافة، الدّوحة.

المبحث الأوَّل:

العبادات في الدّيانات المُندثرة

نَظَرَاً لأهمِّيَّة العبادات في حياة الأمم والحضارات، وما يرتبط بها من آثار تُحدِّد معالمها وقيَمها، واستدلالاً على أنَّ الفطرة الإنسانيَّة تتطلَّب الإيمانَ بعبادة معبود يخشاه الإنسان، وما يُرافق هذا الإيمان من تقديم فُرُوض الطّاعات الأُخرى من تقديم الزّكاة والصّيام والحجّ بصورتها البسيطة غير المُعقَّدة رأيتُ من المُناسب أنْ نتعرَّف إلى عبادات هذه الأمم، لنشاهد ـ بوُضُوح ـ أصالتها، وتميُّز العبادات الإسلاميَّة من سائر الشّرائع.

المطلب الأوَّل:

العبادات في الدّيانة المصريَّة القديمة

اتَّسمت مظاهر العبادة عند المصريِّين القدماء بعبادة مظاهر الطّبيعة المُتجلِّية بوُضُوح في قرص الشّمس[1]، الذي عَدُّوه (صديقاً لشعب مصر فتدفئه شتاءً، وتأتيه بالحرارة صيفاً، إلى جنب القمر، وما يعتريه من ظُهُور واختفاء وصغر وكبَر)[2].

ونَظَرَاً لانتشار التَّصوُّرات حول ماهيَّة الآلهة وطريقة عبادتها وما أحاط بها من نسيج خيال الكَهَنَة، وتنبُّؤات العرَّافين، الذين حاولوا أنْ يُسبغوا على طُقُوسهم التَّعبُّديَّة الطّلاسم والرّموز المُبهمة، خاصَّة السِّحْريَّة منها. كُلُّ ذلك أثَّر في عقيدتهم، فالشُّعُور الغريزي بالخوف والفزع من المظاهر الكونيَّة، ومن الحيوان، ومن كُلِّ ما هو مجهول أسباب جعلتهم يحترمونها ويُقدِّسونها، فأمست مُعتقداتهم مُنتشرة بصورة واسعة.

---

(1) أرجع المصريُّون آلهتهم - من جهة أصلها - إلى قوى الطّبيعة، التي استمدّوا مصادرها من الشّمس والأرض والحيوان، فقدَّسوا الشّمسَ، وجعلوا لها إلهاً سمّوه (رع)، وقدَّسوا الأرضَ، وجعلوا لها آلهة عدَّة؛ منها الإله (جيب) وفتاح، كما قدَّسوا الحيوانَ الذي كان في - بداية أمرهم - رمزاً للآلهة، ثُمَّ عَدُّوه - لاحقاً - إلهاً، للاطِّلاع؛ يُراجَع مُحَمَّد عبد القادر مُحَمَّد (د)، الدّيانة في مصر الفرعونيَّة، دار المعارف، القاهرة، 1984، رشدي عليَّان (د)، سعدون السّاموك، الأديان، ص 54 - 55.

(2) إرمان، أدولف، ديانة مصر القديمة، ص 165، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر.

ولـم يكـن للمصريِّيْـن (ديـن كتـاب) كمـا هـو الحـال في الأديـان السّـماويَّة، بـل لـم يكـن لـهم كتـاب مُقـدَّس[1]، وإنْ كـانت لـهم كتابـة مُقدَّسة تُحفظ في (بيت الكتابـات المُقدَّسـة)[2]، ويـدور محـور عباداتـهم حـول الآلهـة وطُقُوسـها، وما يُقام لـها من احتفـالات، ومـن تقديـم القرابين والنُّذُور، ولعلَّ أهمَّ ما يُميِّزها هو (أنَّ فكرة تعـدُّد الآلهـة ظلَّـت مُسيطرة عليهم، عدا فترة حُكْم الفرعون (أخناتون)[3]، ثُمَّ عـاد ـ بعدهـا ـ المصريُّون إلى التَّعدُّد، ولكنَّهم ـ في جميع عهودهم ـ لم ينسوا عقيـدة الإلـه الأعظم، أو الإله الأكبر[4]. وحاول المصريُّون القدماء الوُصُول إلى فكـرة المعبود الواحد، تلك القُوَّة القادرة على فعـل مـا تريـد، ولكنَّـها (لـم تكـن دعوة نُبُوَّة ورسالة، ولعلَّها جاءت في زمـن لـم تتـهيَّأ النُّفُـوس للوحدانيَّـة، ونَبْذ الشّرك، وتعدُّد الأربـاب، فـهي دعـوة كَهَانَـة، وهـم الذيـن يسـترون ما يعلمون، ولا يبوحون للنّاس بأسرار الدّيانة إلاَّ بمقدار)[5].

---

(1) يعتقد علماء الأديان أنَّ الكتاب المُقدَّس الذي يتداوله المصريُّون القدامى (آنـذاك) هـو كتـاب الموتى، راجع الأديان، ص 54 ـ 55.

(2) ميخائيل، نجيب (د)، مصر والشّرق الأدنى القديم، ص 62، مُؤسَّسة المطبوعات الحديثة، ط3، مصر.

(3) لقد بلغ تحمُّس الفرعون (أخناتون) (1375 ـ 1258 ق.م) لدعـوة التّوحيـد مـا جعلـه يُنـاوئ الآلهة الأُخرى التي كـان المصريُّـون القدمـاء يعبدونـها، وحمـل النّـاس علـى ذلـك، للاطّـلاع؛ يُراجَع استيندروف، ديانة قدماء المصريّين، ص 46 ـ 51، تعريب سليم حسن، مطبعـة المعـارف المصريَّة، ط1، 1923.

(4) العقَّاد، عبَّاس محمود، موسوعة العقَّـاد الإسـلاميَّة، المُجلَّـد الأوَّل، توحيـد وأنبيـاء، ص 322، دار الكتاب العَرَبي، ط1، بيروت.

(5) سوسـة، أحمـد، العَـرَب واليـهُود في التّـاريخ، هـامش، ص 170 ـ 171، دار الحُرِّيَّـة، بغداد، 1972.

إنَّ دعوة (أخناتون) إلى التّوحيد ليست هي الأولى، بل إنَّ تاريخ البشريَّة يذكر أنَّ الخليل إبراهيم (عليه السّلام) قد دعا إلى الحنفيَّة قبله بستُّمائة عام[1].

ويرى المُؤرِّخون بأنَّ عقيدة التّوحيد وصلت إلى (أخناتون) عن طريق قبائل الهكسوس العَرَبيَّة التي حَكَمَتْ في مصر زهاء قرنَيْن من الزّمن قبل عهد أخناتون، والهكسوس على اتِّصال بالمديانيِّيْن الذين كانوا يدينون بالإله الواحد (يَهْوَه)[2].

ويرى آخرون أنَّ لدعوة إدريس ويُوسُف عليهما السّلام أثراً كبيراً في نفس (أخناتون) إذا علمنا أنَّ النَّبيَّيْن كلَيْهما عاشا في مصر. وقد أخبرنا القرآن الكريم عن حوار دار بين نبي الله يُوسُف عليه السّلام ورفاقه في السّجن حول الوحدانيَّة بقوله تعالى: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾[3].

وعلى الرّغم من ذلك فإنَّ دعوة (أخناتون) لم تصل إلى التّوحيد المُطلَق الذي عبَّر عنه القرآن الكريم ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ ﴾[4].

ولقد كانت آلهة المصريِّيْن القدامى تتداعى من القمَّة إلى السّطح حين يبزغ نجم آلهة كانت ثانويَّة، أو غريبة، وكانت الحالة السِّياسيَّة للبلاد هي التي تُؤثِّر على ذلك التّداعي[5]، وجرت عادة المصريِّيْن أنْ

(1) العَرَب واليهُود في التّاريخ، ص 172، وانظر الأديان، ص 56.
(2) انظر الأديان، ص 62 ـ 63.
(3) سورة يُوسُف، الآية 39.
(4) سورة الشّورى، الآية 11.
(5) الأديان، ص 62.

يُقيموا طُقُوسهم التَّعبُّديَّة كُلَّ صباح، ضمن حركات وسجدات، تتخلَّلها أناشيد دينيَّة وإحراق البخور، وتقديم القرابين، وكذلك عندما يقوم الكاهن بفتح الحجرة الإلهيَّة التي تضمُّ الإلهَ للتَّبرُّك، وتقديم النُّذُور من الطّعام والشّراب، ثُمَّ يُقفلها مساء[1].

وتدلُّنا الآثار التّاريخيَّة من صور ومنحوتات أنَّ عبادتهم لقرص الشّمس فيه إيحاء ومُقابلة بين ضوئه وظلمة اللّيل، وكذلك مُقابلة بين الموت والحياة[2]. وقد ساعد خيال الكَهَنَة والمُلُوك على رَسْم مراسيم عباديَّة مُعيَّنة تُعمِّق فيهم روح الإيمان والانقياد لآلهتهم، مُستمدَّة من الأساطير التي توارثوها عن أسلافهم[3]، وأنَّ كافَّة الطُّقُوس الدِّينيَّة تُجرى وتُنفَّذ باسم الملك، وتُصبح أكثر قُدسيَّة وتبجُّلاً عند حجرة قُدس الأقداس؛ حيثُ مركز الإله[4].

(وعرفوا الصّيام كفريضة دينيَّة يتقرَّبون بها من أرواح الأموات، ويعتقدون أنَّ صيام الأحياء يُرضي الموتى لحرمانهم من طعام الدُّنيا، وهو ـ في الوقت نفسه ـ تضامن معهم)[5]، ولازم صيامَهُم طُقُوس عبادة الآلهة، وخاصَّة (أُوزُوريس)[6] إلى جانب أدائهم فروض الصّلاة

---

(1) أندريه إيمار وجانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العامّ، نَقَلَهُ إلى العَرَبيَّة فريد. م. داغر وفؤاد، ج أبو ريحان، انظر الصّفحات 84، 105، 106، ومابعدها، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط2، 1986م.

(2) هـ. فرانكفورت، وجون. أ. ولسن وآخرون، ما قبل الفلسفة، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، ص 59، منشورات دار مكتبة الحياة، بغداد، 1960.

(3) ديانة مصر الفرعونيَّة، ص 165، وانظر ديانة قدماء المصريِّين، ص 136.

(4) انظر الأديان، ص 86.

(5) الكرملي، ناصر الدِّين أبي الفتوح، الصّوم في القديم والحديث، ص 36، مطبعة الكونكورد.

(6) الخطيب، علي (د)، الصّيام من البداية حتّى الإسلام، ص 101، منشورات المكتبة العصريَّة، صيدا، ط1، 1980.

والحجّ، وتقديم القرابين، وقد (أدَّت الظُّرُوف الطّارئة دورها في فرض وتحديد نوع الصّيام، أو الطّعام المُحلّل. . أو ما عَدُّوه فرضاً، أو نافلة، وفي تحديد الامتناع المُطلَق، أو المُحدَّد من الطّعام والشّراب)[1].

وعليه؛ يُعرَف الصّيام لديهم بأنَّه فريضة دينيَّة يتقرَّبون بها إلى الإله، أو أرواح الموتى ممزوجة بشيء من الطُّقُوس المُبهمة التي رَسَمَهَا الكَهَنَة، ويمتنعون فيه عن بعض المأكولات، وصيامهم نوعان: هما صيام الكَهَنَة وصيام الشّعب، فالأوَّل قد جَمَعَ بين كونه فرضاً أو استحباباً، فكانت له مواعيده المُحدَّدة، وقد يرتبط بالتَّصرُّف المفاجئ[2]، كما أنَّه (يتطلَّب من الكاهن خدمة المعبد لِمُدَّة سبعة أيَّام متتالية من غير ماء قبل أنْ يلتحق بالمعبد، وقد تمتدُّ إلى اثنَيْن وأربعين يوماً، ويبدأ صيامهم من طُلُوع الشّمس إلى غروبها؛ إذْ يمتنعون عن تناول الطّعام ومُعاشرة النّساء)[3].

وصيام الكاهن يمرُّ بمراحل؛ إذْ (يصوم في التّكريس الأوَّل عشرة أيَّام عن أكل اللّحم وشراب النّبيذ، وفي التّكريس الثّاني يصوم عشرة أيَّام بعد تلقِّيه واجباته المُقدَّسة، أمَّا في الثّالث؛ فيصوم صوماً رغبة منه لا فرضاً عليه)[4]، والكُهَّان خلطوا صيامهم بالأسرار المبهمة معتقدين أنَّها تضفي القدسيَّة عليهم، كما اعتقدوا ذلك في سائر طُقُوس العبادات،

---

(1) ديانة مصر القديمة، ص 213.

(2) الصّيام من البداية حتَّى الإسلام، ص 104.

(3) شلبي، أحمد، مقارنة الأديان، الإسلام، ص 149، مطبعة السُّنَّة المُحَمَّديَّة، ط4، مصر، 1973، الصّيام من البداية حتَّى الإسلام، ص 105.

(4) الصّيام من البداية حتَّى الإسلام، ص 103 ـ 104.

ففي الصّلاة قصروا التّراتيل فيها بالسّرّيّة والغموض، ولم يسمحوا لعامّة النّاس بالاطّلاع على شرح مضمونها، وليضمنوا بذلك لهم التّبجيل والاحترام والتّنعم بما سيحصلون عليه من واردات المعابد[1].

أمّا صيام الشّعب؛ فكان (أربعة أيّام من كُلِّ عام، تبدأ عندما يحلُّ اليوم السّابع عشر من الشّهر الثّالث من فصل الفيضان)[2].

وهناك نوع آخر من الصّيام يُحرَّم فيه أكلُ كُلِّ شيء من الطّعام؛ خلا الماء والخُضر مُدَّة سبعين يوماً، ويصومون كذلك في الأعياد كوفاء للنّيل، وفي موسم الحصاد، أمّا فريضة الحجّ عندهم؛ فتتمثّل بزيارة أماكن تواجد الآلهة في المعابد المُنتشرة في المُدُن؛ ومنها زيارتهم لهيكل معبودهم (إيزيس)، و(نتاح) في مدينة منفيس، و(أمون) في مدينة طيبة[3]. (وكانت أيّام الحجِّ عندهم من أسعد الأيّام، التي يتقرّبون فيها بالدّعوات، وتقديم القرابين، وفق ما كان مألوفاً عندهم، وكانوا يُغالون في الاعتقاد بسعادة أيّام المراسيم الدّينيَّة الكُبرى، ويذهبون إلى أنَّ مَنْ يُولد في هذه الأيّام من أسعد النّاس حظّاً، ويزعمون أنّه سيكون من كبار رؤساء الدِّين في المستقبل)[4] والحُجّاج كانوا يُقدِّمون ـ علامةً على تعبُّدهم ـ نصباً يُثبتونها بطريقة بربريَّة في نُقُوش مُثبتة في معابدهم القديمة، وهذه النّصب تعني أنَّ الإله قد استجاب إلى الدّعاء. وهناك نُذُور أكثر بساطة، مُتعدِّدة الصُّنع، ممَّا يدلُّ على قيام تجارة حقيقيَّة ضخمة لمُناسبة الحجِّ)[5]، وخلاصة القول:

---

(1) الدبّاغ، تقي، الفكر الدِّيني القديم، ص 85، دار الشّؤون الثّقافيَّة، بغداد، 1992.

(2) الصّيام من البداية حتّى الإسلام، ص 114.

(3) المصدر ذاته، ص 104 ـ 105، بتصرُّف.

(4) مقارنة الأديان (الإسلام)، ص 142.

(5) ديانة مصر القديمة، ص 167 ـ 168.

إنَّ ديانة المصريِّين القدماء كانت تتأثَّر بالأحداث السِّياسيَّة في البلاد[1]، وإنَّ وحدانيَّة (أخناتون) لم تصل إلى التّجريد المُطلَق الذي هو طابع الدّيانات السّماويَّة، وإنَّ فكرة تعدُّد الآلهة ظلَّت مسيطرة عليهم، ومن المُحتمل أنَّ عقيدة التّوحيد عندهم قد ارتكزت أو استُمدَّت من وحي إلهي بصورة غير مُباشرة، وذلك لما يأتي[2]:

أ ـ احتلال المصريِّين الكثير من أقطار آسيا، واتِّصالهم بها قد أَطْلَعَهُم على ما فيها من آثار النَّبيِّين من شرائع وعقائد، فرُبَّما نالت هذه الآثار من نُفُوس المصريِّين شيئاً، وانتقلت مع العائدين منهم إلى مصر.

ب ـ أنَّ نبيَّ الله (إدريس) عليه السّلام الذي عرفه المصريُّون باسم (حوروس) أو (هوروس) هاجر وأتباعه من بابل إلى مصر سنة (4500 ق. م)؛ إذْ كانت دعوته التّوحيد، وكان صدِّيقاً نبيّاً، فيُحتمَل أنْ يكون لدعوته أثر لاحق على عبادة المصريِّين.

وكذلك الحال في هجرة خليل الرّحمن (إبراهيم) عليه السّلام إلى مصر، أمَّا نبي الله (يُوسُف) عليه السّلام الذي عاش في مصر مُدَّة من الزّمن، وظلَّ فيها (عزيزها)؛ فقد أَخْبَرَنَا القرآن الكريم أنَّه جادل بعض رفاقه جدالاً خفيفاً حول الوحدانيَّة التي كان يدين بها في قوله: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾[3].

---

(1) الأديان، ص 61.

(2) المصدر ذاته، الصّفحات 61، 13، 63.

(3) سورة يُوسُف، 39.

المطلب الثّاني:

العبادات في الدّيانة العراقيَّة القديمة

عَبَدَ العراقيُّون القدامى آلهة كثيرة، وأعطوها صفات المُقدَّس الإلهي، وهي (الشّعور العميق بشخصيَّته، وبأنَّ له القُوَّة الخارقة والسَّيطرة الأبديَّة)[1].

إلاَّ أنَّهم لم يعرفوا التّوحيد المُطلَق للإله، ولكنَّهم نعتوا كبيرهم بـ (ربّ الأرباب)، أو (الإله الأعظم)، وهو ما يُعرَف (بالتّفريد).

ويدور محور عباداتهم حول الآلهة المعبودة التي مرَّت بمراحل الحيويَّة والطّوطميَّة قبل تكاملها[2]، وعدّوا آلهتهم كائنات سماويَّة تسيَّد القوى في الكون، إلاَّ أنَّهم كانوا يعتقدون بأنَّهم قادرون على التّأثير على مظاهر الطّبيعة - وهي من أُصُول عباداتهم - وتسخيرها بالسِّحْر القائم على مبدأ التّشبيه، وهو الاعتقاد بإمكان استحداث الشّيء بتقليد عمليَّة حُدُوثه[3].

---

(1) بوتير، جان، الدّيانة عند البابليِّين، ترجمة د. وليد الجادر، ص 12، مطبعة الجمهوريَّة، بغداد، 1970.

(2) الحيويَّة هي الاعتقاد بوُجُود قوى أو أرواح كامنة في مظاهر الطّبيعة، وتجسيدها بهيئة إله. والطّوطميَّة تجسيد الأرواح في النّباتات والأصنام كإله لها تأثير كبير على مجريات الحياة العامَّة. راجع، فاضل عبد الواحد (د)، وطه باقر، د. عامر سليمان، تاريخ العراق القديم، ص 7، مطبعة جامعة بغداد، 1980.

(3) الدبَّاغ، تقي، الفكر الدِّيني القديم، ص 43، الأديان، ص 73.

وكان من ذلك أنْ جسَّدوا آلهتهم بصور البشر والحيوان، وصوَّروا لها بُيُوتاً تعيش في السّماء، ثُمَّ تطوَّرت الفكرة، فأسكنوها في المعبد[1].

إنَّ جوهر عباداتهم مُستمدٌّ من فكرهم الدِّيني، الذي يستتبع ما يشعرون به، ويعتقدونه ديناً في صورته البدائيَّة، المستوحى من محيطهم، وما رافقه من مُتغيِّرات طبيعيَّة وبشريَّة، فألزموا أنفسهم بطُقُوس آمنوا أنَّ في أدائها جلباً للخير والعطاء، ودفعاً للمكروه.

وعباداتهم مُقسَّمة إلى صنفَين: الأوَّل عامّ؛ إذْ يقوم به الفرد لتحقيق غاية الخَلْق من وُجُوده، والثّاني خاصّ لدفع المكاره، كما أنَّها تنوَّعت تبعاً للطّقس الذي يُؤدِّيه المُتعبِّد في البيت، أو في المعبد.

فنجدهم تارةً يستعينون بالكاهن في ذبح القرابين، وما تبع ذلك من صلوات، أو حرق البخور، وأُخرى طُقُوس يقوم بها المُتعبِّد نفسه بدون وساطة من الكاهن؛ كالدّعاء وصلاة التّوبة والاستغفار.

وأبرز آلهتهم المعبودة (أنو) آلهة السّماء، (أنليل) سيِّد الرّيح العاصفة، و (أيا) سيِّد الأرض[2].

ولعلَّ أهمَّ طقس تعبُّدي لديهم هو محاورة الآلهة، ثُمَّ إقامة الصّلوات والأعياد، فالمحاورة نشأت تطبيقاً للمفهوم التّشبيهي للآلهة،

---

(1) المعتقدات القديمة في العراق، ص 40 ـ 42.

(2) الدّيانة عند البابليِّين، ص 50، الأديان، ص 72.

وإنَّ تقديم القرابين على اختلافها والضّحايا تُفسِّر اقتناعهم بالهيمنة الإلهيَّة على كُلِّ شيء)[1].

إنَّ إقامة الصّلاة للآلهة يعتمد على نوع المُناسبة التي من أجلها أُقيمت الصّلاة، والتي تعني رفع شأن هذا الإله أو ذاك، فيُقدِّم المُصلِّي نفسه للآلهة، "ويركع أمامها، ويُقبِّل أقدامها، ثُمَّ يرفع يدَيْه بالدّعاء، وتارةً يرفع يده اليسرى إلى الأعلى، والأُخرى توضع على الصّدر، أو أنَّه يرفع يداً واحدةً للدّعاء، والصّلاة عندهم تُقام في الصّباح"[2].

ولا تكاد الصّلاة تنفصل في أدائها عن بقيَّة الشّعائر، فهي تُقدَّم مع تقديم القرابين وحرق البخور.

ويُؤمن المُتعبِّد بأنَّ الآلهة تسمعه، وتشعر به، فيُخاطبها بما يُكنُّه لها من حُبٍّ كبير؛ لتبقى راضية عنه.

وأبرز طلبات صلاتهم الجماعيَّة دعوتهم إلى محو الكوارث وأبعادها، وجلب الخير، ودفع المكروه، ويُصاحب دعواتهم تراتيل دينيَّة مصحوبة بالموسيقى والمغنيِّين الذين وضعت لهم نقابة تُدير شؤونهم، وتقوم بتدريسهم، وكان أغلب المغنيِّين من الأسارى[3].

---

(1) المفهوم التّشبيهي استحدثه العراقيُّون القدامى، وكذلك المصريُّون بأنَّ نَعْتَ المُلوك لأنفسهم ألقاباً تنمُّ عن ألوهيَّتهم إشباعاً لرغباتهم.

(2) الأحمد، سامي سعيد، (د)، المدخل إلى تاريخ العالم القديم، القسم الأوَّل، ص 206 - 207، مطبعة جامعة بغداد، 1978، الدّيانة عند البابليِّين، ص 147.

(3) الأحمد، المدخل إلى تاريخ العالم القديم، ص 353، وما بعدها، الدّيانة عند البابليِّين، ص 50.

وارتبطت الصّلاة لديهم بتقسيم السّنة حسب مدار القمر إلى اثنَيْ عشر شهراً، يُضاف إلى ذلك - بين حين وآخر - شهر لموازنتها مع السّنة الشّمسيَّة، وكُلُّ شهر مُقسَّم إلى ثلاثين أو تسع وعشرين يوماً، وأوَّل شهر يبدأ بظُهُور القمر الجديد الذي كان ظُهُوره يُعدُّ عيداً تُرافقه الصّلاة[1].

وارتبطت الصّلاة بأعيادهم جميعاً، كعيد الزّواج المُقدَّس بين الآلهة، أو بين الكاهن والكاهنة، وعيد رأس السّنة[2].

والزّكاة كانت مُمثَّلة بالصّدقة الموجبة للعطاء والتَّصدُّق؛ سواء للآلهة أو للفقراء والمحتاجين، فكانت آلهة الزّراعة والخصب تحثُّهم على التَّصدُّق بجزء من محصولهم للفقراء والمساكين.

وكان للكَهَنَة خدمة المعبد النّصيب الأوفر من الصّدقات مُمثَّلة بالقرابين، والأموال، وما يُقدَّم من النُّذُور.

وعُرف الصّيام عندهم باسم (شيتو)[3]؛ إذْ كان نفلاً، وليس فرضاً مُلزماً، فكانوا يصومون ثلاثين يوماً عدد ما تقطعه الشّمس في كُلِّ برج من بُرُوجها، فيُمسكون عن الطّعام والشّراب من شفق شروق

---

(1) الأحمد، المدخل إلى تاريخ العالم القديم، ص279.

(2) انظر، عبَّاس، راجحة خضر (الأعياد في وادي الرّافدَيْن)، رسالة ماجستير على الآلة الكاتبة، مُقدَّمة إلى قسم الآثار، كُلِّيَّة الآداب، جامعة بغداد، 1976، الدّيانة عند البابليِّين، ص1.

(3) فاضل، مُحَمَّد، الحراب في صدر البهائيَّة والبابيَّة، ص88، دار التَّقدُّم، 1329.

الشّمس إلى شفق غروبها، ويُفطرون على غير اللُّحُوم من الألبان والنّباتات، إلاَّ ما حُرِّم منها، ويُقسِّمون الثّلاثين يوماً إلى ثلاثة أقسام:

1 ـ قسم يصومون فيه أربعة عشر يوماً متتالية في فصل الشّتاء، موافقة لأعداد الكواكب السّبعة المشهورة وأفلاكها.

2 ـ قسم يصومون فيه سبعة أيَّام في الرّبيع.

3 ـ قسم يصومون فيه تسعة أيَّام في أواخر الصّيف[1].

أمَّا فريضة الحجِّ؛ فلم يعرفوها بالمعنى الحصري المُحدَّد بمكان مُعيَّن؛ إذْ يقول د. سامي سعيد الأحمد[2]: تُمثِّل الاحتفالات الدِّينيَّة المقامة للآلهة الكبيرة في المعابد والمقرونة بمظاهر الفرح والابتهال مظهراً من مظاهر الحجِّ، المصحوب بالصّلاة والموسيقى تفخيماً وتعظيماً لآلهتهم. وتُعتبر أماكن تواجد ـ نصب ـ آلهتهم أماكن مُقدَّسة يقصدونها بين الحين والآخر، لطلب حاجة، أو دفع مكروه، أو أيّ غرض آخر[3].

---

(1) الحراب في صدر البهائيَّة والبابيَّة، ص88، وما بعدها.

(2) أُستاذ التّاريخ القديم في جامعة بغداد، كُلِّيَّة الآداب ـ قسم التّاريخ، له العديد من المؤلَّفات التّاريخيَّة مُوزَّعة في الموسوعات العلميَّة والتّآليف المُفرَدَة.

(3) قال لي ذلك خلال مُقابلتي معه بتاريخ 10/ 11/ 1995.

المطلب الثّالث:

العبادات في الدّيانة اليونانيَّة القديمة

تبلورت العبادات اليونانيَّة القديمة عبر مراحل متلاحقة، مكوِّنة - خلالها - جملة طُقُوس وشعائر تعبُّديَّة مُستوحاة من خيال وأساطير تجمَّعت بداخلها أفكار بشريَّة، وإنْ طغتْ عليها المسحة الفلسفيَّة على حساب المُعتقَد.

وتُعرَّف الدّيانة اليونانيَّة: بأنَّها مجموعة شعائر تعبُّديَّة من مزيج من فلسفة الأساطير القديمة، ونتاجات الفكر البشري الآني، المُفعمة بالسِّحْر والشّعوذة.

وتميَّزت عبادتهم بتأثيرها بمظاهر الطّبيعة والخوف والرّهبة منها، كما قدَّموا الحيوانات شأنهم شأن الأمم الأُخرى، بل إنَّهم عبدوا (الجماد)، ومزجوا عبادته بطلاسم السِّحْر والتّخريف، "ونظراً لدُخُول الفلسفة في تفسير مظاهرهم الدِّينيَّة لم تبرز - بوُضُوح - طُرُق عباداتهم، ويُدلِّل على ذلك المُكتشفات الأثريَّة في جزيرة (كريت) للحضارتَيْن الميتيَّة والمسيتيَّة"[1].

---

(1) الحضارة المينيَّة أنشأها سُكَّان جزيرة (كريت)، والجزر المجاورة لها ما بين سنة (2700 - 1100 ق.م). الحضارة المسينيَّة تُنسب لأقوام شبه جزيرة اليونان وجزر بحر إيجه في الفترة ما بين عام (1600 - 1100 ق.م)، انظر الفكر الدِّيني القديم، ص29.

وَعَبَدَ اليونانيُّون آلهة مُتعدِّدة في فترات زمنيَّة مُتفرِّقة، وهذا التَّعدُّد (مدعاة للتَّصلُّب والتّساهل)[1]، وتنوَّعت أماكن العبادة لديهم بين موقد الدّار أو موقد البلديَّة القائم في قاعة المدينة العامَّة، أو في شقٍّ في الأرض يسكنه إله أرضي[2].

وظلَّت صفة الإشراك ملازمة لديانتهم، فاختلفت نظرتهم للمعبود وتباينت، وهي نتيجة منطقيَّة، لبُعدهم عن مهبط الوحي، وهم ـ بذلك ـ "لم يضيفوا إلى تراث البشريَّة الدِّيني شيئاً، وإنَّما أخذوا كُلَّ شيء عن الدّيانات الشّرقيَّة عن طريق الفينيقيِّيْن والكريتيِّيْن"[3].

وصوَّروا آلهتهم على شكل تماثيل في أوَّل الأمر، ثُمَّ ظهرت في مرحلة لاحقة العبادة الطّوطميَّة التي تتجسَّد فيها المعبودات المادِّيَّة التي يحترمها البدائيُّون لاعتقادهم بوُجُود علاقة خاصَّة بتلك المادِّيات تمنحهم منافع متبادلة، ومن هنا "جاءت عبادتهم للأشجار والأفاعي، فنقشوا صورها على قرنَيْ ثور الذي كان أحد الرُّمُوز للآلهة"[4].

وأبرز آلهتهم المعبودة هي الآلهة الأنثى[5]؛ لأنَّها تُمثِّل في نَظَرهم رمزاً للإخصاب والعطاء، كما عبدوا (الرّبَّة الحيَّة) ربَّة المنزل الحسَّاسة،

---

(1) تاريخ الحضارات العام، مج1، ص366.

(2) دورانت، ول، قصَّة الحضارة، مج1، ص349، ترجمة مُحَمَّد بدران، لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر، مصر.

(3) الأديان، ص79.

(4) الهاشمي، طه، تاريخ الأديان وفلسفتها، من منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1963، الفكر الدِّيني القديم، ص211.

(5) الفكر الدِّيني القديم، ص214.

وأشهر آلهتهم (زووس) الذي قدَّموا إليه القرابين والنُّذُور، وأدّوا له الصّلاة المصحوبة بأصوات النّاي والقيثارة والطّبلة[1]، واليوناني المُتعبِّد يشعر باتِّحاده مع الإله عند تأديته للطُّقُوس، مثل المشي على القدمَيْن مسافة طويلة في مواكب جماهيريَّة، وكذلك الصّوم والتَّطهُّر وحمل المشاعل والرّقص وشرب الخمرة[2].

وارتبطت شعائرهم بعضها بالبعض الآخر، فالصّلاة لا تُؤدَّى بمعزل عن تقديم الذّبيحة، ففي حوار وضعه أفلاطون يحمل سقراط مُحدِّثه على التّصريح "أنَّ التّقوى وضمان خلاص العائلات والمُدُن في معرفة ما يُرضي الآلهة إمَّا بتأدية الصّلاة أو في تقديم الذّبيحة"[3].

وأدَّت الأساطير والخُرافات دورها في المعتقدات اليونانيَّة، والتي طوَّرها ـ فيما بعد ـ الكَهَنَةُ والسَّحَرَةُ، فأصبحت "عملاً إبداعيَّاً محضاً بطريقة لا شعوريَّة"[4]. وتدلُّ الرّسوم التّاريخيَّة أنَّ أداءهم للصّلاة يكون وُقُوفاً وجثواً إلى الأرض، وامتداداً مصحوباً بقراءات التّراتيل الدِّينيَّة. ولم يكن لهم أوقات ثابتة للصّلاة، فهم يصلُّون حين يرومون الذّهاب للمعبد، أو عند تقديم الذّبيحة للآلهة، أو استنزالاً للخير، أو دفعاً لمكروه، أمَّا الزّكاة لديهم؛ فيُمثِّلها عطاؤهم من المال والذّبائح لرجال الدِّين، وخدمة المعبد، كطاعة وولاء للآلهة، وهذا العمل غير مقرون بمُدَّة زمنيَّة مُحدَّدة، وإنَّما هو مرتبط بتقديم النُّذُور والقرابين للآلهة طلباً ودفعاً للمكاره.

(1) الأديان، ص74.

(2) الفكر الدِّيني القديم، ص212، وص216.

(3) المصدر ذاته، ص221.

(4) تاريخ الحضارات العامّ، مج1، ص367.

وارتبط الصّيام بشعائر من وَضْع الكَهَنَة؛ إذْ أسبغوا عليها طابع الخفية، وقسَّموها إلى أسرار صغرى، وأسرار كبرى[1]، "فالأولى تقام في فصل الرّبيع بالقرب من (أثينا)، ويغمر فيها طُلاَّب الأسرار أنفسهم بالماء، فيستحمّوا، ويصوموا، وعند طلب الأسرار الكبرى، وهي الفترة التي تدوم أربعة أيَّام لمَنْ حاز الأسرار الصّغرى، يُعاد عليهم الاستحمام والصّيام، والذين سبقوهم في الأداء في مثل ذلك الموعد من العام الماضي كانوا يُؤخذون إلى بهو (الاندماج)؛ حيثُ الاحتفال السِّرِّيّ، وهناك يُفطر المبتدئون والصّائمون بأنْ يتناولوا عشاء ربَّانيّاً إحياءً لذكرى (رملتر) الإله"[2].

وأهالي مدينة (تورنتم) يصومون كُلَّ عام شُكراً على النّجاة من حصار نزل بهم، فلمَّا زال لازموا صيامهم[3].

وكان اليونانيُّون يصومون قبل الحرب رجاء النّصر، أمَّا رجال الدِّين في جزيرة كريت؛ فيصومون مدى الحياة عن أكل اللُّحُوم والأسماك والطُّيور[4]، وكان الشّعب يصوم عشرة أيَّام قبل خوض المعارك استنزالاً للنّصر، كما أنَّ المُحصَّنات الأثينيَّات يصمن حافيات أيَّاماً تسبق تنقيح القوانين التي تُنقَّح كُلَّ سنة، وكانت تُصاحب عبارة (ديونسيوس) رياضة تقشُّفيَّة[5]، وتباين صوم الشّعب، وأمر ذلك راجع إلى اختلاف تركيبته

---

(1) الصّيام من البداية حتَّى الإسلام، ص111، وقصَّة الحضارة، مج2، ج1، ص242، نشر الجامعة العَرَبيَّة.

(2) الصّيام من البداية حتَّى الإسلام، ص111، قصَّة الحضارة، مج2، ج1، ص242.

(3) قصَّة الحضارة، مج1، ص 144، الصّيام من البداية حتَّى الإسلام، ص111.

(4) مقارنة الأديان (الإسلام)، ص149، ط 4.

(5) الصّيام من البداية حتَّى الإسلام، ص112.

المُتكوِّنة من طوائف مُختلفة الأجناس، تبعاً لذلك أصبحت وظيفة رجل الدِّين "تهدئة الضّمير بالطُّقُوس لإحيائه بالتّحذير"[(1)].

"على أنَّ ذلك لا يمنع أنْ يكون ما حيك حول الصّيام من ترغيب نفسي كان كفيلاً لإقناعهم بمُمارسته"[(2)].

وآمنوا بأنَّ (الصّائم يستطيع قَتْلَ الأفعى إذا تفل في فيها)[(3)]، وتأثَّر الرّومان بطُقُوس الصّيام اليونانيَّة، فأصبح صيامهم شبيهاً به، أمَّا أعيادهم؛ فكثيرة، وكانت تُصاحبها طُقُوس العبادة، وأشهرها عيد (أثينا) الذي يُذكِّرهم بتوحيدهم سياسياً[(4)].

إذنْ؛ فالصّيام عندهم يُمثِّل شعيرة الامتناع والحرمان الممزوجة بتعاليم مُبهمة وَضَعَهَا الكُهَّان ليختصّوا بها وحدهم. والحجُّ عندهم القصد إلى أحد نصب آلهتهم المنتشرة في مُدُنهم بغية لإرضائها، وطلباً لترحُّمها في حفظهم من المكاره، وجلباً للخير العامِّ. ويتمثَّل الحجُّ لديهم في زيارة هيكل (ديانا) في مدينة (أفسوس)، وهذا الحجُّ بدأ عندهم قبل ميلاد المسيح عليه السّلام بنحو خمسين قرناً، واستمرّوا عليه إلى بداية القرن الثّاني قبل الميلاد، وبعدها؛ أخذوا يحجُّون إلى معبد (مينارفا) في (أثينا) عاصمة اليونان، ومعبد (جوبيتر) في (أُولمبيا)[(5)].

---

(1) الصّيام من البداية حتَّى الإسلام، ص112، عن كتاب (الفنّ والمجتمع)، تأليف هربرت ريد.

(2) انظر، المصدر ذاته، ص112 ـ 113.

(3) الصّيام من البداية حتَّى الإسلام، ص112، وقصَّة الحضارة، مج3، ج2، ص192.

(4) تاريخ الحضارات العامّ، ج1، ص368، وانظر قصَّة الحضارة، مج2، ج11، ص36.

(5) مجلَّة معهد الإسكندريَّة الدِّيني، ص142، السّنة الأولى، العدد الأوَّل.

المطلب الرّابع:

العبادات في الدّيانة الرّومانيَّة القديمة

يدور محور العبادات عند الرّومانيِّيْن حول الآلهة والمعبد، وما يُرافقهما من شعائر أصبحت ـ بمرور الزّمن ـ ذات قُدسيَّة مُطلقة؛ إذْ حاولوا التّوفيق بين ما ورثوه من اليونانيِّيْن وبين طُقُوسهم المحلِّيَّة، وكذلك ما جَلَبَهُ الوافدون إليهم من مراسم دينيَّة مُتباينة في هيئتها، فعبدوا آلهة كثيرة تباينت في قُدسيَّتها بين مدينة وأُخرى، حتَّى قيل إنَّ الرّوماني "يبتهل في دعاء واحد إلى آلهة كثيرة، بل لم يعد في وُسْع الرّومانيِّيْن التّمييز بين تمثال الأرباب وتمثال قيصر"[1].

وإلى جانب الآلهة؛ عبد الرّومانيُّون مُلُوكهم وأبطالهم وأُمراءهم، بعد أنْ اتَّخذوا هؤلاء جميعاً لهم رُمُوزاً إلهيَّة، بل إنَّهم "ألَّهوا عائلة الإمبراطور الحاكم كُلّها"[2].

والطّابع المُميَّز للعبادة هو الجمع "فالصّلاة والذّبيحة هما شيئان مُتلازمان، فبعد أنْ يرشَّ على الضّحيَّة الخمرَ، تُنثر عليها فتات الكعكة المُقدَّسة، ثُمَّ يقوم مُساعد الكاهن بذَبْحها، ثُمَّ تُفحص الأجزاء الدّاخليَّة فحصاً دقيقاً، وخاصَّة الكبد"[3].

---

(1) بترى أ. مدخل إلى تاريخ الرّومان وآدابهم وآثارهم، ص360، ترجمة يوئيل يُوسُف عزيز، مطبعة دار الكُتُب، جامعة الموصل، 1977.

(2) و. هـ. ب. الرّومان، ترجمة عبد الرّزاق يسري، ص52، نهضة مصر، 1968.

(3) ولا يُعرَف سرُّ اهتمامهم بالكبد وبين ما يعتقدون وُجُوده شراً بين الأحشاء، انظر: مدخل إلى تاريخ الرّومان وآدابهم وآثارهم، ص97، وانظر: اليونان والرّومان، ص362، وص356.

والكاهن يؤمُّ المُصلّين بتلاوة تراتيل وأدعية بصوت خافت في حين يُغنّي أحدهم على المزمار، ويقف الحاضرون في صمت عميق، وإذا ما حصل خطأ في إحدى هذه الطُّقُوس أو عرقلة طارئة يجب إعادة جميع الطُّقُوسْ وتقديم ذبيحة للتّكفير عن الخطأ[1]. وأشهر آلهتهم المعبودة (ميثرا)[2] التي وفدت إليهم من إيران في النّصف الثّاني من القرن الأوَّل الميلادي، والإله (جوبيتر)[3] إله السّماء الصّامتة، والإله (فستا) إلهة المدفن والبيت، والإله (جينوس)[4] الذي يرعى الإنسان من ولادته حتّى وفاته، والإله (نبتس) المسؤول عن حفظ الأطعمة ومخزن البيت.

إنَّ هذه الكثرة في الآلهة المعبودة سبَّبتْ لهم إرباكاً في إيمانهم، ممَّا حداهم إلى السّخرية من طُقُوس تعبُّدها، ممَّا اضطُرَّ إمبراطور قسطنطين أنْ يسمح بفتح روما للمُبشِّرين المسيحيِّين[5].

واهتمَّت الدّولة الرّومانيَّة بالدِّين كركيزة للاستقرار، فاعتنت بالكَهَنَة وتثقيفهم، فَفَتَحَتْ لهم مدارس خاصَّة للعلوم الدِّينيَّة، بعد أنْ هيَّأت لهم جميع مُستلزمات التّدريب والتّدريس، ويترأس الكَهَنَةَ (الحبرُ الأعلى) صاحب الكلمة الأولى في المُجتمع الدِّيني، وعلى المستوى الشّعبي والرّسمي.

---

(1) المصدر ذاته، ص97.

(2) اليونان والرّومان، ص371.

(3) حوَّى، سعيد، (الله)، ص 171، دار الكُتُب العلميَّة، ط 3، بيروت، 1981.

(4) اليونان والرّومان، ص371.

(5) انظر الأديان، ص83.

وهؤلاء الكَهَنَةُ يعتقدون في عملهم بالفأل الذي يعتمد على طيران الطُّيور، أو أصواتها طبقاً لقوانين معروفة لديهم تُؤلِّف علم الكَهَانَة، كما سمحوا للنّساء بامتهان الكَهَانَة[1].

وصلاتهم عبارة عن خُضُوع وقُنُوت أمام الإله في المعبد في هيئات مُختلفة، وُقُوفاً وجثواً، رافعين أيديهم تارةً، وخافضيها تارةً، ويُردِّدون التّراتيل الدِّينيَّة، وطلب الرّجاء والعفو من الإله مصحوبة بالموسيقى؛ خاصَّة إذا كانت تُؤدَّى بصورة احتفاليَّة رسميَّة أو شعبيَّة. أمَّا صلاة الفرد؛ فهي شبيهة بالصّلاة الجماعيَّة خلا كونها تُؤدَّى بالبيت، وبدون موسيقى[2].

أمَّا الزّكاة؛ فهي عبارة عن تقديم الهبات والعطايا لرجال الدِّين والعاملين في المعبد، وتشمل ما يُعطى للفقراء والمساكين من صدقات، وهي غير مُلزمة للفرد؛ ولكنْ؛ لها مسحة دينيَّة مُعتبرَة لديهم.

ويستغلُّ رجالُ الدِّين النّاسَ في كُلِّ ما يُقدَّم إليهم، وذلك لمصلحتهم الخاصَّة، زاعمين أنَّهم وُسطاء النّاس في رَفْع طَلَبَاتهم للإله بالقبول.

أمَّا فرض الصّيام؛ فهو فرض مزيج من شعائر يونانيَّة وهنديَّة تجد في الجوع وعذاب الجسد ملجأ للتَّخلُّص من الخطايا والذُّنوب،

---

(1) مدخل إلى تاريخ الرّومان، ص96.

(2) استنتجتُ من ذلك من خلال اطّلاعي على الرّسومات التّاريخيَّة التي تُوضح هيئات صلواتهم أمام الإله، وهو ما أيّدني به الدُّكتور سامي سعيد الأحمد خلال مُقابلتي معه بتاريخ 29/ 6/ 1995.

وصيامهم شبيه بصيام اليونانيِّين؛ إذْ تأثَّروا بهم، وخاصَّة في صيام الإله (أرنيس)"[1].

كما أنَّهم تأثَّروا بالمُعتقدات الهنديَّة التي ترى في الحرمان المُتواصل والجوع المُتعمَّد خير وسيلة للصّفاء الرُّوحي، والقُرب من الإله المعبود. وهذا ما عمد إليه عباقرتهم أمثال (ليكوزموس) مُشرِّع أسبرطة، و (فيثاغورس)[2] العالم الرّياضي.

وكانوا من شدَّة اهتمامهم بالصّيام أنْ قاموا بإنشاء مدارس للتَّصوُّف في (أثينا وولفي وإيلوزيس) كانت أولى غاياتهم الاتِّصال المُباشر بالإله عن طريق النّسك[3].

ولم تُبرز المصادر صيام الأفراد، وتُوضحه، بل بيَّنتْ - بإسهاب - صيامْ الكَهَنَة، والأدوار التي يمرُّون بها، عبر تكريسهم مُنذُ الصّغر؛ إذْ يمرُّ الكاهن عبر تنسُّكه بمراحل حرمان من الطّعام، تشتدُّ تدريجيّاً كُلَّما أنهى تكريساً مُتقدِّماً، إلى أنْ ينتهي ببُلُوغه مرحلة الكَهَانَة الرّئيسيَّة[4].

وكان للظُّرُوف الطّارئة كالتَّنبُّؤ بالغيب صيام خاصّ به، ونظراً لإيمانهم بالفأل، فقد أولوا اهتماماً خاصّاً بالمُنجِّمين الكُهَّان، فأفردوا لهم وظيفة رسميَّة في روما، ومقرُّها دار البلديَّة[5].

---

(1) اليونان والرّومان، ص364، بتصرُّف.

(2) الصّيام من البداية حتَّى الإسلام، ص107.

(3) المصدر ذاته، ص109.

(4) المصدر ذاته، ص109، وما بعدها.

(5) المصدر ذاته، ص113.

وهناك صيام التَّنبُّؤ الذي تقوم به الكاهنات لاستعدادهنَّ أكثر من غيرهنَّ للتَّنبُّؤ، فيصمنَ ثلاثة أيَّام إلاَّ من ورق الغار، ليمضغنه، وتجلس الصّائمة على نضد عال، لتشتمَّ أبخرة منتنة من موقد مُشتعل يُجبرها استنشاقه على الاضطراب الشّديد الذي يعدُّه الكَهَنَة بأنَّه من عمل الآلهة، فتهذي بكلمات يتناولها الكَهَنَة بحرص، فيؤوِّلوها بعدَّة وُجُوه من التّفسير.

وقد يُصيغون كلماتها شعراً يُذيعونه على طالب النُّبُوءة الذي يدفع ـ بالمُقابل ـ المال[1].

ولم يعرف الرّومانيُّون مفهومَ الحجِّ بالمعنى الحصري، بل كان مزيجاً من الاحتفال بهذا الإله أو ذاك، ميلاداً، أو زواجاً، أو استنزالاً للمطر، أو طلباً للنّصر، أو دفعاً للخطر، فيُقسِّموا المواكب الاحتفاليَّة في كراديس مُنتظمة تُبجِّل هذه المُناسبة بمُشاركة الملك ورجال بلاطه، وكان للظّرف السِّياسي ـ في بعض الأحيان ـ دَخْلٌ في تحديد هذا المفهوم خدمة لصاحب السّلطة، ويصاحب هذه الاحتفاليَّة، الصّلاة الجماعيَّة، وتقديم الهبات والعطايا من الذّبائح والأموال.

---

(1) أخبرني بذلك د. سامي سعيد الأحمد في مُقابلة أجريتُها معه بتاريخ 15/ 6/ 1995.

المبحث الثّاني:

العبادات في الدِّيانات الحيَّة

نَظَرَاً لأهمِّيَّة الدّيانات الحيَّة في حياة الشُّعُوب، رأيتُ من المُناسب أنْ أتناول تلك الدّيانات مُمثَّلة في صور عبادات الدِّيانات الهندوسيَّة والبوذيَّة والصّينيَّة والزّرادشتيَّة والصّابئيَّة.

المطلب الأوَّل:

العبادات في الدّيانة الهندوسيَّة

تقوم أُسُس الدّيانة الهندوسيَّة على (الكارما)[1]، وتناسخ الأرواح، ووحدة الوُجُود، وتبعاً لذلك يتحدَّد الإطار العامّ لعبادتهم.

واهتمَّت دياناتهم بالطُّقُوس والشّعائر المُرتبطة بالإله (براهما)، فقدَّمتْ له القرابين، وقدَّستْهُ، باعتباره ليس مُستقلاً في ذلك، بل يحلُّ في جميع مخلُوقاته الطَّيِّب منها والخبيث، فيُشاركها آلامها وآثامها.

وعقيدتهم تقوم على عدم الاعتراف بقيمة الحياة، وأنْ ليس هناك حاجة لوُجُود إله يُعبَد، ولكنْ؛ بمرور الزّمن تغيَّرت نظرتهم حينما اعترفوا بتأليه مجموعة من القدِّيسين، فأقاموا الشّعائر، وأخضعوهم للتّناسل والتَّحلُّل، "وأصبح لكُلِّ شيء روح وقُدسيَّة، وأخذت كُلُّ آلهة وَضْعيَّة مُعيَّنة مُحدَّدة، إلاَّ أنَّ الآلهة العليا أخذت لنفسها ثلاثة أقانيم تُدعى الأوَّل (براهما) ووظيفته الخَلْق والإيجاد، ودُعي الثّاني (قشنوا) للمُحافظة على الخَلْق والوُجُود، و(سيفا) المُخرِّب الجبَّار"[2].

---

(1) (الكارما): قانون الجزاء أو العدالة والانطلاق نحو انعتاق الرّوح من الجسد واتِّحادها بالإله (براهما)، انظر الأديان، ص 89 ـ 90.

(2) الأديان، ص 88.

إنَّ جُذُور دعوتهم هذه تقوم على أُصُول طوطميَّة قديمة مُرتكزة على تقديس أرواح كثيرة، كما أنَّها ترجع إلى عبادة قوى الطّبيعة، فتشترك بالإيمان بالخُرافات المُتأثِّرة بالسِّحْر والتّعويذات.

وتتجلَّى ملامح التّفريد عندما يتوجَّهون بعبادتهم نحو الإله (براهما)، مُتناسين بقيَّة الآلهة، ويُنادونها بربِّ الأرباب، بعد أنْ يُضفوا عليها كُلَّ صفات الكمال والتّقديس، ودعوتهم لبراهما وأقانيمه الثّلاثة تشبه ما أخذت به المسيحيَّة في قولها بالثّالوث المُقدَّس (الآب، الابن، الرُّوح القُدُس)[1] بعدئذ.

والصّلاة لديهم تُشارك طُقُوس تقديم القرابين والنُّذُور لآلهتهم وهيئتها إمَّا وُقُوفاً، أو جلُوساً، أو يُرتِّلون الأدعية الدِّينيَّة.

أمَّا الزّكاة؛ فليست فرضاً تشريعيّاً لديهم، بل إنَّ الصّدقة على الفقراء والمساكين أمر مُحبَّذ للنُّفُوس، ومدعاة للتّآلف والتّوادد، كما أنَّهم يعدُّون التَّصدُّق على الكَهَنَة - خَدَمة الأماكن المُقدَّسة - يُلاقي في نُفُوسهم استحساناً كبيراً؛ خاصَّة في أثناء تأديتهم لفريضة الحج[2].

والبارز من شعائرهم الصّيام: الذي عدُّوه تطهيراً لكُلِّ شيء، ففرضوا صياماً تقشُّفيّاً كالصّمت والامتناع عن الأكل والشُّرب، قلَّما

---

(1) تلتقي الدّيانة الهندوسيَّة مع الدّيانة المسيحيَّة في مسائل العقيدة وطُقُوس العُقُوبات والكفَّارات المدعاة إلى التّساهل المُبالغ فيه المبني على الخير وكفِّ الشّرِّ وتمكين لاطم الخدِّ من الخدِّ الأُخرى، والدُّعاء للعدوِّ بالخير والصّلوات عليه، وغيرها. انظر البيروني، أبو الرّيحان، مُحَمَّد بن أحمد، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، ص 467، وما بعدها، مطبعة مجلس دائرة المعارف العُثمانيَّة، الهند، 1958.

(2) تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، ص 467.

نجده عند سائر أصحاب الدّيانات الأُخرى. وصيامهم تطوُّع ونَفْل، وليس فرضاً مفروضاً عليهم. ويتوجَّه المُتعبِّد بصيام الصّمت بكُلِّ جوارحه وأحاسيسه نحو معبوده، فيُمسك بزمام قلبه، هادئاً، مُركِّزاً فكره في الواحد، مُتجلِّياً في مذهب (اليوجا)[1]، ويختلف صيام الكَهَنَة عن صيام الشّعب؛ إذْ تميَّز بكثرة أيَّامه وقسوته، ويبدأ صومهم مع بداية كُلِّ فصل من الفُصُول الأربعة، مضافاً بها اليوم الأوَّل والرّابع عشر من كُلِّ شهر قمري، ويصومون مُدَّة كُسُوف الشّمس؛ كالمُسلمين، وفيه يكفُّون عن الصّلاة والاتِّصال الجنسي[2]. ولديهم صوم (براك)[5] الذي يجعل الصّائم طعامه وقت الظّهيرة ثلاثة أيَّام مُتوالية، ثُمَّ يُحوِّله إلى وقت العتمة ثلاثة أيَّام مُتوالية، ثُمَّ يصوم ثلاثة أيَّام مُتوالية لا يُفطر فيها البتَّة.

ومنهم مَنْ يصوم ما يزيد عن ساعة فَلَكيَّة تبدأ بغُرُوب الشّمس، وتنتهي بغياب الشّفق الأحمر[3].

وتذكر (البيرونا) ـ وهي من أسفارهم المُقدَّسة ـ الصّيامَ في قطعة شعريَّة محفوفة بهالة من التّقدير، ومسبُوقاً بصفة تُؤكِّد وُجُوده في فلسفة ترى استقلال الأفراد وَهْماً و (وحدة الوُجُود) حقّاً[4].

---

(1) مذهب (اليوجا) هو الرُّكُون إلى السُّكُون عن الحركة في أوضاع مُختلفة، وإخضاع الحواسِّ كافَّة للتَّأمُّل الرُّوحي لفترة لم تُحدَّد بوقت، راجع قصَّة الحضارة، مج2، ج 3، ص 60.

(2) و (5) الصّيام من البداية حتَّى الإسلام، ص 67، ص 66.

(3) الصّيام من البداية حتَّى النّهاية، ص 66.

(4) قصَّة الحضارة، مج 2، ج 3، ص 211.

وأصحاب العقيدة (الجندريهكنيَّة)[1] يسجدون ويُقدِّمون القرابين من الطّعام والشّراب لتمثال معبُودهم، ويصومون صوماً يستغرق النّصف من كُلِّ شهر قمري، ويُفطرون عند طُلُوع القمر، فإذا انتهى الشّهر، وأتى الهلال الجديد، أفطروا، وأتوا إلى صَنَمهم بالقُربان، ثُمَّ صعدوا إلى الأسطح، داعين آلهتهم بأنْ ترزقهم، وتعفوا عنهم، ثُمَّ يشرعوا في طعامهم.

وهناك ألوان أُخرى من الصّيام الذي ينتهي ـ أحياناً ـ بالموت تطبيقاً للزُّهد الماحق الذي لحق الجسد.

والحجُّ عندهم تطوُّع وفضيلة، وليس مفروضاً عليهم، وهو القصد إلى أحد البلاد المُقدَّسة لديهم، أو أحد أصنامهم المُعظَّمة، أو الأنهار المُطهَّرة، فيغتسلون بها، ويُؤدُّون فُرُوض الطّاعة لمعبودهم، ويُسبِّحون له، ويدعون، ويحلقون رُؤُوسهم ولحيهم، وهُم يُقدِّسون الحياض الطّاهرة، ومعظمها في الجبال الباردة، وكونها فاضلة باتِّفاق أمر جليل فيها، أو نصٍّ وارد في الكُتُب والأخبار[2].

---

(1) (الجندريهكنيَّة) هي عقيدة يخصُّ مُعتنقوها القمرَ بالتّعظيم، ويعدُّونه من الملائكة، وغرضهم الأصيل (فصل العقل عن الجسد)، راجع: ابن النّديم، الفهرست، ص 348، مكتبة ضياء، بيروت، 1964.

(2) تحقيق ما للهند، ص 467.

المطلب الثّاني:

العبادات في الدّيانة البوذيّة

يدور محور العبادات البوذيّة حول التّفكُّر والتّأمُّل الرُّوحي في حقيقة الوُجُود، وبوذا وأتباعه أنكروا وُجُود الله تعالى، خوفاً من أنْ تنشأ طبقة لاهوتيّة مُتسلِّطة تستغلُّ عامَّة النّاس، ولكنَّه - في الوقت ذاته - لم يدَّع الألوهيَّة لنفسه، بل إنَّ مُريديه جعلوه إلهاً، فعبدوه[1].

وذلك على الرّغم ممَّا جاء به من تعاليم تُعدُّ منهجاً خلقيّاً لفلسفة اجتماعيَّة، غايتها التّخفيف من آلام النّاس، والعمل على إسعادهم، وإلغاء الطّبقات، وتحقيق المساواة بين البشر. ولمَّا أنكروا وُجُود الله، أخذت (النّيرفانا) طريقاً جديداً في فلسفتها ومبادئها[2].

وتقوم أُسُس ديانتهم على فلسفة (الحُبِّ والسّلام) والابتعاد عن ملاذ النَّفْس، والرُّقي بالإنسان إلى مصافِّ الزّهد والتّقشُّف عبر تأمُّلات روحانيَّة عميقة تُعظِّم دوره في المجتمع؛ إذ إنَّها تُحرِّم العمل، ولم يرد عن بوذا أنَّه زاول عملاً، أو حثَّ عليه[3].

---

(1) انظر مقارنة الأديان، ج 4، ص 212-213، ط 4، 1976، والأديان، ص 101، والمدخل لدراسة المذاهب والأديان، ج1، ص 83.

(2) (النّيرفانا): وتعني: نعيم النَّفْس وخُلُودها في الرّاحة الأبديَّة، ولا يتأتّى لها ذلك إلاَّ بعد أنْ تمرّ بتجارب كثيرة قاسية تصفو فيها النَّفْس من الرّغبات الحسيَّة، انظر: الصّيام من البداية حتّى الإسلام، ص 73، وما بعدها، ومقارنة الأديان، ج4، ص 101، ط 3، مكتبة النّهضة المصريَّة، 1972.

(3) الصّيام من البداية حتّى الإسلام، ص 78.

ولهم كُتُب مُقدَّسة تُعرف بـ (سلال الحكمة الثّلاث)[1]، وهي من أضخم ما ورد في التُّراث التّشريعي في أيّ دين من الأديان.

إنَّ تعاليم بوذا في العبادات شيء، وما جاء به أتباعه من بعده شيء آخر، وخاصَّة في فرضَيْ الصّيام والحجّ. والصّلاة لديهم عبارة عن تأمُّلات عميقة في عالم الهُيام اللاَّهوتي، يُقيمونها أمام تمثال بوذا في معابدهم جُلُوساً؛ إذْ يُرتِّلون كلمات تنمُّ عن التّقديس والخُشُوع له، حتَّى أولئك الذين لا يُؤمنون بألوهيَّة بوذا، فإنَّهم يُرتِّلون ألفاظاً لاهوتيَّة تُنقش على عجلات يُديرها الهواء والماء بخُشُوع وتضرُّع[2].

ويُقيم البوذي صلاته في بيته منفرداً أمام تمثال مُصغَّر لبوذا.

والزّكاة عندهم واجبة على الذين يملكونها في الحول، أو الشّهر، (ومنهم مَنْ يرى أنَّ نسبة الصَّدَقَة هي التِّسع؛ لأنَّه يرى في ثُلثه للادِّخار كي يطمئنَّ إليه القلب، وفي ثُلثه الآخر أنْ يُصرَف في التّجارة ليُثمر، وفي ثُلثه الباقي أنْ يتصدَّق به، ويُنفق ثُلثاه في الدّار)[3].

---

(1) وتُسمَّى السَّلَّة الأولى (سلَّة العقائد)، وفيها وصف دقيق لقواعد التَّنسُّك والرَّهبنة، وتُسمَّى السَّلَّة الثّانية (سلَّة الأمثال)، وتتناول مجموعة من المواعظ والأحاديث، وقيل إنَّ بوذا أسماها (كنز الخمسمائة والخمسين قصَّة) و (كتاب الأمثال البوذيَّة)، أمَّا السَّلَّة الثّالثة فتُسمَّى (سلَّة الشّريعة)، وتشمل ما اشتملت عليه السَّلَّة الأولى، بالإضافة إلى احتوائها على الرّوابط الاثنَيْ عشر، (وتعني ربط البوذي بمُعتقده، إيمانياً)، كما تشمل على الحقائق النّبيلة للبوذيَّة، راجع: المدخل إلى دراسة المذاهب والأديان، ج1، ص 79 ـ 80، والأديان، ص 100.

(2) انظر الصّيام من البداية حتَّى الإسلام، ص 78.

(3) تحقيق ما للهند، ص 466.

(وبعضهم مَنْ رأى قسمته أرباعاً، كما ألزموا أنفسهم بأداء الخراج الذي يلزم الأرض، أو المرعى إلى الوالي، وبالسُّدس أجرة على الزّيادة من الرّعيَّة، وحفظ أموالهم وحُرِّيتهم)[1].

أمَّا صيامهم؛ فله جذور عميقة في الفكر الهندي، فهُم صاموا صمتاً تأمُّليّاً طويلاً، كما امتنعوا عن تناول الأكل والشُّرب (عدا الحليب)[2].

ويبدأ صيامهم من منتصف النّهار حتَّى فجر اليوم الثّاني، ويصومون ثلاثة أيَّام متفرِّقة في السّنة، أوَّلها يوم اكتمال القمر في (مايس) من كُلِّ عام. وهو عيد ميلاد بوذا، وثانيهما عند اكتمال القمر أيضاً في حزيران، وهو أوَّل يوم في الصّيام البوذي، وآخرها عند اكتماله في تشرين الأوَّل، وهو آخر يوم في الصّيام الكبير[3].

وبعضهم يصوم يوماً من كُلِّ شهر عند اكتمال القمر في الرّابع عشر من كُلِّ شهر قمري[4].

وللبوذيِّيْن أربعة أماكن يحجُّون إليها في الهند والنّيبال؛ وهي:

1 ـ المكان الذي وُلد فيه بوذا، ويُدعى (غابة لمبيني).

2 ـ المكان الذي بدأ منه تباشير تعاليمه، ويُعرف بـ (سارنات).

3 ـ المكان الذي أشرقت فيه الحقيقة في الهند، ويُعرف بـ (بوذا جايا).

---

(1) تحقيق ما للهند، ص 467.

(2) انظر الصّيام من البداية حتَّى الإسلام، ص 78.

(3) المدخل إلى دراسة المذاهب والأديان، ج1، ص 82. والصّيام من البداية حتَّى الإسلام، ص 74.

(4) المدخل إلى دراسة المذاهب والأديان، ج1، ص 82 ـ 83.

4 ـ وأخيراً؛ يحجُّون إلى مرقده في قرية (كوسنياهر)[1].

والبوذيُّون يعترفون بأنَّ طقوس العبادة في الصّلاة والصّـوم والحـجِّ لم يأت بها بوذا، وإنَّما هي من وَضْعهم بعد وفاتـه. ويحتفلـون بعيدَيْـن رئيسَيْن مُرتبطَيْن باكتمال القمر، وببوذا نفسه.

(1) المصدر السّابق ج1 ص 82، والصّيام من البداية حتَّى الإسلام ص 74.

المطلب الثّالث:

العبادات في الدّيانة الصّينيَّة

عَبَدَ الصّينيُّون القدماء مظاهر الطّبيعة، والأرواح المسيطرة على ظواهر الأشياء (الملائكة)، وأرواح الآباء[1].

وآمنوا بأنَّ إله السّماء كائن عظيم، يُحبُّ الخير، ويكره الشَّرَّ، وهو ما آمن به (كُونفُوشيُوس)، وحثَّ أتباعه عليه، بعد أنْ اعترف بوُجُود إله واحد (تي. ان)[2]، صاحب العرش في السّماء. وسلَّم (كُونفُوشيُوس) بشرائع السّماء، على الرّغم من عدم اهتمامه بمعرفة شيء عن الله وأسمائه وصفاته، بل بذل جهده في إصلاح النّاس. فكان الدِّين عنده مواساة اليتيم، والبرّ بالفقراء والمعوزين[3].

وكان يقول إنَّ الإنسان لا يصل إلى مراتب التَّقدُّم عن طريق التَّعبُّدات، بل يصلها عن طريق ذاته بالمعرفة الصّحيحة[4]. وحدَّد لهم

---

(1) أبو زهرة، مُحَمَّد، مقارنة الأديان، ص 89، مطبعة النّصر، مصر، 1965.

(2) شلبي، أحمد، التّفكير الدِّيني في العالم قبل الإسلام، عرض وترجمة وتعليق، أصل اسم الكتاب (درى أدم سمغي مُحَمَّد صلّى الله عليه وسلَّم)، بقلم د. حاج أورامج كاى رحمات بن داتو بحر الدِّين)، راجع الأديان، ص 106، ص 108.

(3) الأديان ص 106، وما بعدها، التّفكير الدِّيني في العالم قبل الإسلام، ص 107.

(4) الأديان، ص 108.

فضائل، ونهاهم عن شرور أربعة[1]، ولكُونفُوشيُوس كُتُب مُقدَّسة خمسة، ليس فيها ما يخصّ العبادات، بل إنَّ كتابه (المراسيم) (لي. ك. انج)[2] وضعه من أجل أنْ لا يُقبل النّاس على الطُّقُوس الدِّينيَّة، ويُهملوا الخلاصة والرّوح؛ إذْ ركَّزت كُتُبه على تطهير النّفس، وتنزيهها، وإبعادها عن السُّقُوط في براثن الخطايا والآثام.

ويرى بعض الباحثين خلاف ذلك[3]، ونظراً لعدم ادِّعائه بالنُّبُوَّة، وبأنَّه صاحب عقيدة دينيَّة، وقلَّة تطرُّقه للعبادات، ومسألة الخَلْق، وإنكاره الإيمان باليوم الآخر، وما يقع فيه من وعيد وعذاب، عُدَّ مذهبه نظاماً دُنيويّاً لا دينيّاً، وأنَّه في الأصل مذهب سياسي[4]، على الرّغم من أنَّه قام بواجب العبادة، فقدَّم القرابين، وكان يُؤدِّي الصّلاة صامتاً، وهو جالس، لا ينطق بالكلمات، كما أوجب على أتباعه الاستحمام قبل أداء الصّلوات، وكان يقول "المخطئ في حقِّ السّماء

---

(1) الفضائل هي احترام الوالدَيْن، وطاعة الصّغير والكبير، والوفاء، والأخلاق، والحشمة، والأدب، والحياء، والإحساس بالخجل، أمَّا الشُّرُور الأربعة؛ فهي:

1 ـ فرض العقوبة بدون نصٍّ قانوني، فإنَّه طغيان.

2 ـ توقُّع الطّاعة التّامَّة بغير تخيُّر مُناسب، فإنَّه فجور.

3 ـ فرض الضّرائب والإنفاق بتقتير، فإنَّه إساءة استعمال الحُكْم.

4 ـ توقُّع الانصياع الفوري للأوامر المُتأخِّرة، فإنَّه السّرقة.

للاِّطلاع، ؛ يُراجع: كايرمان جوزيف حكمة الأديان الحيَّة، ترجمة حسين الكيلاني، ص 99ـ 100، دار مكتبة الحياء، بيروت، 1964، والمدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب، ج1، ص 99.

(2) المدخل إلى دراسة المذاهب والأديان، ج1، ص 99.

(3) انظر المنوفي، محمود أبو الفيض، الدِّين المقارن، ص 97، دار نهضة مصر، القاهرة، 1970. وحكمة الأديان الحيَّة، ص 96. والشّهرستاني (أبو الفتح مُحَمَّد بن عبد الكريم)، الملل والنِّحَل، الجزء الثّاني، ذيل الملل، ص 21. ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1961.

(4) الملل والنِّحَل، ج2، ذيل الملل والنِّحَل، ص 21.

ليس له مَنْ يتوجَّه إليه إلاَّ بالصّلاة"[1]، وهو - بذلك - متأثِّر بمعتقدات أسلافه، ولعلَّ التقاءه بـ (لاو - تنزو) مؤسِّس الدّيانة الطّاويَّة في الصّين أثر في ذلك[2].

واهتمَّ كُونفُوشيُوس كثيراً بالصَّدَقَة (الزّكاة)، ومساعدة الفقراء؛ إذْ صرف جُلَّ عمله في الاعتناء بهم، وإعانتهم بإبداء النّصيحة لهم، ممَّا طغى ذلك على تعاليمه، ولم يكن له نظام خاصٌّ للصَّدَقَة.

أمَّا صيامهم؛ فكان كَفَّ الأكل والشّراب لأمد غير مُحدَّ، حسب طاقة المُتعبِّد وتحمُّله؛ إذْ رأوا فيه تطهيراً للنَّفْس، ونقاء لها.

وبعد وفاة كُونفُوشيُوس؛ قدَّسه أتباعه، وألَّهوه، فقدَّموا له القرابين في مواسم عُدَّت - فيما بعد - حجّاً غير مُلزم لهم، وكان يرافق احتفالهم بهذه الفريضة الغناء والرّقص على أنغام الموسيقى. كما أنَّهم كانوا يحجُّون إلى (هيكل تيان)[3]، الذي يُمثِّل رُفات أحد قدِّيسيهم.

---

(1) الملل والنِّحَل، ج2، ذيل الملل والنِّحَل، ص 21.

(2) نشأت الدّيانة الطّاويَّة أو الدّاويَّة جنباً إلى جنب الدّيانة الكُونفُوشيُوسيَّة في القرن السّادس قبل الميلاد، ولم يدَّع (لاو) بأنَّه نبيّ، أو صاحب عقيدة دينيَّة؛ إذْ تنصبُّ فلسفته على هجر التّفكير؛ إذْ يرى أنَّه لا خير في الجدال والنّقاش، فهو يضرُّ بالحياة أكثر ممَّا ينفعها، كما يُوجب على أتباعه مُعاملة النّاس برفق وإحسان، وبعد وفاته؛ ذهب أتباعه إلى تشويه أفكاره بأن حوَّلوها إلى عقيدة تُؤمن بمعبود لم يذكره في حكمه وأقواله، ثُمَّ تحوَّل النّاس بعد فترة من وفاته إلى عبادته، جاعلين منه إلهاً. ، فبُنيت له المعابد. راجع: المدخل إلى دراسة المذاهب والأديان، ج1، ص 97، والأديان، ص 110، وما بعدها.

(3) مجلَّة معهد الإسكندريَّة الدِّيني، العدد الأوَّل، السّنة الأولى، ص 142.

المطلب الرّابع:

العبادات في الدّيانة الفارسيَّة القديمة (الزّرادشتيَّة)

اختلفت آراء علماء الأديان والمؤرِّخين والمفسِّرين حول زرادشت، وما دعا إليه، وهل أنَّ مصدرها الوحي؟ أو أنَّ ما جاء به من نتاجه الفكري؟

ويرى الشّهرستاني أنَّه كان مُوحِّداً لله تعالى[1]، وعند ابن حزم (أنَّ المجوس هم المُصدِّقون بنُبُوَّة زرادشت، والمُكذِّبون بنُبُوَّة موسى)[2].

يقول العلاَّمة مُحَمَّد حسين الطّباطبائي: "والمجوس المعروف أنَّهم المُؤمنون بزرادشت وكتابهم المُقدَّس (أوستا)"[3].

"وخلاصة القول ما جاء به زرادشت من جديد في الدّيانة أنَّه أنكر الوَثَنيَّة، وجعل الخير المحض من صفات الله، ونزل بإله الشَّرِّ إلى ما دون منزلة المساواة بينه وبين الإله الأعلى، وبشَّر بالثّواب، وأنذر بالعقاب، وقال: بأنَّ خَلْق الرّوح سابق لخَلْق الجسد، وحاول جهده أنْ يقصر الرَّبَّانيَّة على إله واحد، موصُوف بأرفع ما يفهمه أبناء زمانه من صفات التّنزيه"[4].

---

(1) الملل والنِّحَل، ج1، ص 115، مطبعة الحيدري، بمبي، الهند، 1314 هـ.

(2) ابن حزم (أبو مُحَمَّد علي بن حزم)، الفصل في الملل والنِّحَل، 1.

(3) الطّباطبائي، مُحَمَّد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج1، ص 358، مُؤسَّسة الأعلمي، ط3، 1973.

(4) موسوعة عبَّاس محمود العقَّاد الإسلاميَّة، توحيد وأنبياء، 1/ 107.

وحينما دعا زرادشت قومه إلى التّوحيد نعت الله (أهورامزدا) بأسمى أوصاف السُّمُوِّ والألوهيَّة الحقَّة[1]. ودخلت الرّيبة في تعاليمه عندما حدَّد للعالم أصلَيْن، أحدهما للخير؛ وسمَّاه (أهورامزدا)[2]، وآخر للشَّرّ؛ وسمَّاه (أهرمن)[3]، وزعم أنَّهما في صراع دائم. فكأنَّه جعل لله نداً في الخَلْق. وهذا التّقسيم مدعاة للثّنويَّة، ولكنَّ المُتتبِّع لما دعا إليه في صلواته وأدعيته التي يناجي فيها ربَّه، يجعله في مصافّ المُصلحين. ويرجع هذا التّباين في دعوته للتّوحيد أو التّنويه إلى عدم توافق مَنْ نقلوا عنه من الكُتَّاب، وإلى ما ألحد فيه أتباعه من بعده.

وكَفَرَ زرادشت بآلهة قُدامى الإيرانيِّيْن، ولم ينطق بأسمائهم، ولم يتضرَّع إليهم، وأنكر عليهم عبادتهم لمظاهر الطّبيعة (الماء، الهواء، التُّراب).

وَأَولَوا (أيْ الزّرادشتيَّة) للنّار قُدسيَّة كرمز للطُّهر والسُّمُو الرَّبَّاني، وأمروا أتباعهم على الاحتفاظ بها مُتَّقدة مُضطربة بالمعنى الرّمزي والرّوحاني بعد أنْ أَوْكَلوا هذه المهمَّة للكَهَنَة؛ حيثُ يأتون خمس مرَّات في اليوم ليُوقدوها من خشب الصّندل، أو غيره من الموادّ العطريَّة[4].

---

(1) انظر عبد القادر، حامد (د)، زرادشت الحكيم، ص 91 ـ 92، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، انظر: فصل (الله) في موسوعة العقَّاد الإسلاميَّة، مج1، ص 109 ـ 110.

(2) كلمة (أهورامزدا) مُكوَّنة من (أهو) و(را) و(مزدا)، ومعناها على التّرتيب (أنا، الوُجُود، الخالق)، أو (أنا خالق الكون).

(3) كلمة (اهرمن) مرادفة لروح الشَّرّ، أو روح الأذى والفساد، انظر: فصل (الله)، مج1، ص 108، من موسوعة عبَّاس محمود العقَّاد الإسلاميَّة، وانظر: الشّريف بن محمود، الأديان في القرآن، ص 87، دار المعارف، مصر، عبد القادر، حامد (د)، زرادشت الحكيم، ص 187، مكتبة نهضة مصر.

(4) الموصلي، داود الجلبي (د)، تعليق ونقل عن الفرنسيَّة، القنديداد، لم يذكر اسم المُؤلِّف، ص 3، مطبعة الاتِّحاد الجديدة، الموصل 1371، موسوعة العقَّاد الإسلاميَّة، مج1، ص 110.

ولزرادشت كتاب مُقدَّس (الافستا)[1] وهو مجموعة مُؤلَّفة من خمسة أجزاء مُستقلَّة يختلف تاريخ تدوينها، وأقدمها يرجع إلى زرادشت نفسه، الذي يشتمل على تعاليمه التي جَمَعَهَا تلاميذه من بعده، وهو مكوَّن من إحدى وعشرين نسكاً - أيْ كتاباً - لم يصل إلينا منها سوى كتاب واحد هو (القنديداد)، ومعناه مُخالفة الشّيطان، وفيه أبحاث عن خَلْق العالم وقواعد التّطهير[2].

ولكتاب "الافستا" شرح يُسمَّى "زندا فستا"[3]؛ أمَّا كتاب "الفسبرد"[4]؛ فهو خاصٌّ بالمراسيم الدِّينيَّة، وترتيبها، ويتألَّف من أربع وعشرين فصلاً، ولهم كتاب في الأدعية يُسمَّى "أليسنا"[5]؛ يُقرأ عند تقديم القرابين.

والصّلاة عند زرادشت دُعاء إلى (أهورامزدا) في كُلِّ مُناسبة تتطلَّب ذلك، ومثال ذلك دُعاؤه المأثور (أرجو منكَ أيُّها الرَّبُّ الخالق المُطلق القدير أنْ تغفر لي ما ارتكبتُ من سيِّئات، وما دار بخلدي من تفكير سيما وما صدر عنِّي من قول أو عمل غير صالح، إلهي إنَّني أرجو منكَ أنْ تُباعد بيني وبين الخطايا، حتَّى أُحشر يوم الدِّين مع الأطهار والأخيار)[6].

---

(1) القنديداد، تعليق، داود الجلبي الموصلي، ص 3 - 4، انظر: الأديان، ص 130.

(2) القنديداد، ص 4.

(3) (زاندفستا) كلمة مُركَّبة من (زند)؛ ومعناها: شرح، و(أفستا)، ومعناها: نصّ، فيكون معنى (الزّندافستا) النَّصُّ والشّرْح. راجع الأديان، ص 130، والقنديداد، ص 4.

(4) القنديداد، ص 4.

(5) المصدر ذاته، ص 4.

(6) زرادشت الحكيم، د. حامد عبد القادر، ص 91 - 92.

وتروى الأساطير الزّرادشتيَّة، أنَّه فرض على أتباعه خمس صلوات في اليوم واللّيلة، كانت واحدة منها عند بُزُوغ الشّمس، وواحدة عند الظُّهر، وأُخرى عند الغُرُوب[1]. ولم تتطرَّق إلى الصّلاتَيْن الأخيرتَيْن.

ولم يفرض زرادشت على أتباعه زكاة مُلزمة مُحدَّدة، ولكنَّه حبَّب لهم روح التّعاون والتّآلف الاجتماعي، ومساعدة الفقراء والمساكين بالمال والطّعام. ونَبَذَ في مجتمعة الفقر والعوز، ودعا إلى أنْ يكون النّاس جميعاً بخير يأكلون من كدِّ أيديهم، لا من السُّؤال وعطايا النّاس. ويقدم الزّرادشتيُّون على تقديم الأموال والعطايا إلى مَنْ يحتاجها من النّاس، كما أنَّهم عمدوا إلى تقديم الأعمال النّافعة، أو الموادّ المفيدة للنّاس تكفيراً عن أخطائهم؛ مثل إعطاء رجال الدِّين من الأسباب لإنجاز وظائفهم، وإعطائهم الأدوات الزّراعيَّة، كما يُوجبون إعطاء المحاربين ما ينقصهم من أنواع السّلاح، وحرَّم زرادشت الصّيام على أتباعه؛ لأنَّه - في رأيه - يحدُّ من نشاطهم وحركتهم، كما رأى في الصّيام إضعافاً للفلاَّح عن مزاولة عمله، وهو يريدهم أقوياء؛ مُعلِّلاً ذلك أيضاً بتوفير القوت لجميع النّاس، وانصبَّ اهتمامه بالزّراعة، واعتبرها عملاً وواجباً دينيّاً مُقدَّساً؛ لأنَّه يعطي الثّمار والخير للنّاس، إلاَّ أنَّ (ماني بن فاتك)[2] الذي كان زرادشتياً مُتفقِّهاً في تعاليمها، وَضَعَ

---

(1) الأديان في القرآن، محمود بن الشّريف، ص 87، زرادشت الحكيم، ص 91.

(2) (ماني بن فاتك): فيلسوف فارسي وُلد عام 215م، درس ديانة قومه القديمة، وديانة زرادشت، كما درس الدِّين المسيحي، فأحدث ديانة تقوم على العقائد الفارسيَّة والمسيحيَّة، حتَّى وصفها المُؤرِّخون بأنَّها (زرادشتيَّة - مُتنصِّرة) انظر: المنوفي، السَّيِّد محمود أبو الفيض، الدِّين المقارن الحديث في سائر الأديان العالميَّة، ص 70، دار النّهضة، مصر للطّبع والنّشر، ط1، 1970.

ـ بعد وفاة زرادشت ـ برنامجاً للصّيام صارماً وشاقّاً، ولم يخلُ دينٌ من الصّيام إلاَّ دين زرادشت[1].

وَعَمَدَ أصحاب زرادشت بعد وفاته إلى تقديسه وتبجيله، فعظَّموا مرقده، وكذلك المشاهد التي عاش فيها، فحجُّوا إليه مُتضرِّعين مُبتهلين، ولكنْ؛ بمُرُور الزّمن ضعفت هذه الشّعيرة لديهم لتناقص عددهم، وظُهُور الدِّيانات السّماويَّة[2].

وقد تأثَّرت الزّرادشتيَّة بالدِّيانتَيْن اليهُوديَّة والمسيحيَّة في صورة الابتهالات، وتقديم البركات، كما أنَّهم أخذوا عنهم بعض حركات الرُّكُوع والجثو، كما تُبيِّن ذلك الرُّسُومات الدِّينيَّة، والمشاهد التي تُصوِّر المُصلِّين وقت أدائهم للصّلاة[3].

ولكنَّ تلك التّأثيرات تجلَّت ـ بصورة أوضح ـ في البُحُوث المُتَّصلة بالملائكة والشّيطان؛ حيثُ نجد تشابهاً بين الملائكة السّبعة عند الزّرادشتيَّة، وما تذكره (رؤيا يُوحنَّا اللاَّهوتي) من كُتُب العهد الجديد[4].

---

(1) البستاني، بُطرُس، دائرة المعارف، ج1، ص 769، طبعة طهران.

(2) يَعُدُّ الدُّستُورُ الإيرانيُّ الزّرادشتيَّةَ أحدَ الأديان السّماويَّة المُعترَف بها، أخبرني بذلك د. سعدون السّاموك.

(3) الكوراني، علي سيدو، زرادشت والزّرادشتيَّة، ص 592، مطبعة المجمع العلمي الكُردي، بغداد، 1975.

(4) انظر: زرادشت والزّرادشتيَّة، علي سيدو الكوراني، ص 594.

المطلب الخامس:

العبادات في الدّيانة الصّابئيَّة

اختلف العلماء والباحثون في حقيقة الصّابئة وديانتهم، كما اختلفوا في مركزهم التّشريعي نتيجة اختلافهم في حقيقة دينهم.

فرُوي عن أبي حنيفة[1] أنّه عَدَّهم من أهل الكتاب، وقال أبو يُوسُف ومُحَمَّد[2]: ليسوا من أهل الكتاب، ورُوي عن أحمد بن حنبل[3] أنَّهم جنس من النّصارى، كما رُوي عنه أنّهم من اليهُود، ورُوي عن جعفر الصّادق[4] أنَّهم ليسوا من أهل الكتاب، وروي عن الحَسَن البصري[5] أنَّهم بمنزلة المجوس، كما رُوي عنه أنّهم قوم يعبدون الملائكة.

وقال الإمام فخر الدِّين الرّازي (ت 606 هـ) إنَّ "في الصّابئيَّة قوم يقولون إنَّ مُدبِّر هذا العالم وخالقه هذه الكواكب السّبعة، فهُم عَبَدَةُ هذه الكواكب، ولمَّا بعث اللهُ إبراهيمَ - عليه السّلام - كان النّاس على دين الصّابئيَّة، فاستدلَّ إبراهيم عليه السّلام عليهم في حُدُوث الكواكب، كما حكى الله - تعالى - عنه في قوله ﴿ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴾[6]"[7].

(1) هو النّعمان بن ثابت الكوفي صاحب المذهب الحنفي (80 هـ - 150 هـ).

(2) أبو يُوسُف ومُحَمَّد صاحبان لأبي حنيفة، وهما من الفقهاء.

(3) أحمد بن حنبل (164 - 241 هـ) صاحب المذهب الحنبلي.

(4) جعفر الصّادق بن مُحَمَّد الباقر من أئمَّة أهل البيت (83 هـ - 148 هـ).

(5) هو الحسن بن يسار من فقهاء التّابعين، وشيخ أهل البصرة، تُوفِّي سنة 110 هـ.

(6) سورة الأنعام، الآية 76.

(7) الرّازي، الإمام فخر الدِّين، اعتقاد فرَق المُسلمين والمشركين، مراجعة وتحرير علي سامي النَّشَّار، ص 90، مطبعة لجنة التّأليف والنّشر، القاهرة، 1938.

ويُفصِّل الشّهرستاني (479 ـ 548 هـ) في كيفيَّة نُشُوء الصّابئيَّة بعد أنْ يُقسِّم الفرَق زمن الخليل إبراهيم عليه السّلام إلى صنفَيْن: حُنفاء وصابئة، ويرد في ذكْر فرَقهم، وفي نهاية المطاف يذهب إلى أنَّهم من المُوحِّدين. وجاء في مجمع التّفاسير رأي الخليفة العادل عمر بن الخطَّاب، الذي عدَّهم من أهل الكتاب، وأنَّ ذبائحهم ذبائح أهل الكتاب، وقال ابن عبَّاس: لا تحلُّ ذبائحهم، ولا مُناكحتهم، وقيل هم قوم بين اليهُود والنّصارى يحلقون أوساط رؤوسهم، وقيل هم قوم يُقرُّون بالله، ويقرؤون الزّبور، ويعبدون الملائكة، ويُصلُّون إلى القبلة[1].

إنَّ في الدّيانة الصّابئيَّة نظرات قديمة خاطئة، فيُطلق على عَبَدَة الأوثان والنُّجُوم من الذين كانوا يسكنون أرض العَرَب (صابئة) وهم المعنيُّون (بالصّابئة الحرانيِّيْن) السّاكنين في مدينة حران، والذين في حقيقتهم لا علاقة لهم بالصّابئة الذين ذكرهم القرآن الكريم[2].

فالحرانيُّون ليسوا هم الصّابئة، وإنَّما الصّابئة هم المندائيُّون المُوحِّدون لله تعالى، ويرى الدّكتور سعدون السّاموك[3] أنَّ تسميتهم

---

(1) مجمع التّفاسير، 1/ 135، دار الدّعوة، ط2، استانبول، تُركية، 1404 هـ ـ 1984م.

(2) وَرَدَ ذكْرهم في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم هي ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ سورة البقرة، الآية 62. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ سورة المائدة، الآية 69. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ سورة الحجّ، الآية 17.

(3) أُستاذ الأديان في كُلِّيَّة العلوم الإسلاميَّة بجامعة بغداد.

بالصّابئة الحرانيِّين قد استخدمها العلماء المُسلمون. والصّابئة والمندائيُّون تسميتان لُمسمًّى واحد، يُقصَد به العقيدة الدِّينيَّة التي جاءت تعاليمها مكتوبة باللُّغة الآراميَّة الشّرقيَّة المعروفة بالمندائيَّة[1].

ويتَّخذ الصّابئة من (صُحُف آدم) كتاباً مُقدَّساً لهم؛ إذْ يُسمُّونها (كنزاربا)[2]، ومعناها (الكنز العظيم)[3]، ولهم كتب دينيَّة أُخرى[4] وبيوت العبادة تُسمَّى (المندى)؛ إذْ يقيمونها قرب مصابِّ الأنهار؛ ليسهل لهم أداء شعائر التّعميد في النّهر الجاري[5].

---

(1) انظر مراني، ناجية، مفاهيم صابئيَّة مندائيَّة، ص 51، وص 157، مطبعة شركة التّايمس، ط2، بغداد، 1981.

(2) نجم، الشّيخ رافد الشّيخ عبد الله، الصّلاة المندائيَّة وبعض الطُّقُوس الدِّينيَّة، ص7، مطبعة التّايمس، بغداد، 1980، الزّهيري عبد الفتاح، الموجز في تاريخ الصّابئة المندائيِّين، العَرَب البائدة، نقَّحه فريد عبد الزّهرة المنصور، ص 97، مطبعة أركان، ط1، بغداد، 1983.

(3) الموجز في تاريخ الصّابئة المندائيِّين، ص 97.

(4) من كُتُبهم الدِّينيَّة ما يأتي:

أ ـ سيدره أدنشماثة: أيْ الطّويلة الأمد، وهو كتاب الأرواح الخيِّرة، ويشمل التّعميد أيضاً.

ب ـ كتاب النّياني: شرح تراتيل الصّلوات.

ج ـ ديوان أواثر: محاسبة الأرواح ووزنها على سيِّئاتها وحسناتها.

د ـ أسفر ملواثة: تفسير الاسم الدِّيني للمواشة.

هـ ـ كتاب القلستا: خاصّ بعقد الزّواج.

و ـ دراسة أديتهي: دروس وتعاليم النّبي يحيى بن يُوحنَّا.

ز ـ ترسر القشيالة: اثنا عشر سؤال وتفسيرها.

ح ـ حران مويشا: كتاب خاصّ بالدّعاء.

ط ـ مصبتة أدهيبل ريو: يتناول فيه (عماد جبريل الملك).

ي ـ ألمة ريشة وألمة زوطة: تفسير عالم النّور وعالم الظّلام، للمزيد؛ يُراجَع الموجز في تاريخ الصّابئة المندائيِّين، ص 97.

(5) كانوا قديماً لا يُجوِّزون غسل التّعميد إلاّ في الأنهار الجاري ماؤها، أمّا في الوقت الحاضر؛ فسمحوا بالتّعميد في الماء غير الجاري كالأحواض.

ويرجع اختلاف الباحثين حول حقيقة الدّيانة الصّابئيَّة إلى جملة أسباب، تُوضحها لنا (ناجية مراني)[1] مفادها:

1 - كثرة الفرَق والمذاهب وتعدُّد المقولات الدِّينيَّة والفلسفيَّة في العهد العباسي عهد التّأليف والتّرجمة، ممَّا أثَّر ذلك في بيان حقيقة دينهم.

2 - وُرُود التّعاليم الدِّينيَّة الصّابئيَّة باللُّغة الآراميَّة التي تأثَّرت بمجيء اللُّغة العَرَبيَّة؛ ممَّا أدَّى ذلك إلى اقتصار لُغتهم على الكتابات الدِّينيَّة والشّعائر الخاصَّة، وغدت معرفة تعاليمهم وفَهْم مغزاها مُقتصرة على جماعة مُحدَّدة من رجال الدِّين، وجهل عُمُوم النّاس بها.

3 - تكتُّم رجال الدِّين المندائيِّيْن، وعُزُوفهم عن الخوض في الأمور الدِّينيَّة بحُضُور الآخرين، بمَنْ في ذلك أتباع العقيدة نفسها، وذلك لاعتقادهم بأنَّها أمور جليلة لا يجوز الخوض بها أمام مَنْ لا يفقهها، وهذا التَّكلُّم مدعاة للتَّقوُّلات والتَّخرُّصات التي لا تتَّفق والحقيقة في أغلب الأحيان.

4 - انتحال فئات غير صابئيَّة اسم الصّابئة تخلُّصاً من العقاب الذي يتوجَّب على الفئات اللاَّدينيَّة والتي كانت تقطن ضمن الدّولة الإسلاميَّة.

5 - تعمُّد بعض الفئات الإساءة إليهم عن طريق الانتقاص من عقيدتهم، ويُؤيِّد ذلك ما أورده العالم العَرَبي (البيروني) في كتابه (الآثار الباقية عن القُرُون الخالية).

---

(1) هي من أبناء الطّائفة الصّابئيَّة حاصلة على الدُّكتُوراه من قسم اللُّغة العَرَبيَّة والدّراسات الشّرقيَّة من الجامعة الأمريكيَّة في بيروت، لها مُؤلَّفات أدبيَّة ونقديَّة، انظر كتابها: مفاهيم صابئيَّة مندائيَّة، ص 76، وما بعدها، مطبعة شركة التّايمس، ط2، بغداد، 1981.

وقيل "والصّابئة قوم عدلوا عن اليهُوديَّة والنّصرانيَّة، وعبدوا الكواكب والملائكة، فكانوا كَعَبَدَة الأوثان؛ وإنْ كانوا يقرؤون الزّبور"[1].

وللمُفسِّر الشّيخ المراغي رأيان:

الأوَّل: هم قوم يعبدون الملائكة، ويُصلُّون إلى القبلة، ويقرؤون الزّبور.

الثّاني: هم قوم مُوحِّدون يعتقدون تأثير النُّجُوم، ويُقرُّون ببعض الأنبياء والملائكة، ويُصلُّون إلى غير القبلة[2].

وينقل صاحب تفسير (روح البيان) حديثَ الأعرابي الذي جاء إلى النّبي صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: لمَ يُسمَّ الصّابئُون صابئِّين؟ فقال صلَّى الله عليه وسلَّم: "لأنَّهم إذا جاءهم رسول أو نبي أخذوه، وعمدوا إلى قدر عظيم، فأغلوه، حتَّى إذا كان محميَّاً صبُّوه على رأسه، حتَّى يتفسَّخ"[3].

"إنَّ الصّابئِّين والحنفاء شيء واحد، أو طبقة واحدة، وأنَّهم أولئك الذين تخلّوا عن دين الآباء الشِّركي أو الوَثَني، وهم من مُستنيري عَرَب الحجاز، ووجدوا الله، ولم يستريحوا إلى اليهُوديَّة

(1) البروسي، إسماعيل حقِّي، روح البيان، المجلَّد/ 1، ص 153، دار الفكر.

(2) المراغي، أحمد مصطفى، تفسير المراغي، انظر 1/ 134، 17/ 98، 6/ 162، دار إحياء التّراث العَرَبي، بيروت، ط2، 1985.

(3) روح البيان، إسماعيل حقِّي البروسي، 1/ 153.

والنّصرانيَّة؛ لمـَّا رأوا فيهما من مشاكل وانقسامات، وفي أهلهما من انحرافات ومتناقضات"[1].

وينسب د. محمود بن الشّريف إلى صاحب كتاب (أبكار الأفكار) الإمام أبي الحسن علي بن مُحَمَّد، المُكنَّى بأبي علي بن سالم التّغلبي الفقيه الأُصُولي المُلقَّب (بسيف الدِّين الآمري) أشهر فِرَق الصّابئة إلى أربعة؛ وهي:

1 ـ **أصحاب الرّوحانيَّات:** ويزعمون أنَّ الكواكب الفَلَكيَّة هياكل هذه الرّوحانيَّات.

2 ـ **أصحاب الهياكل:** وهؤلاء يؤمنون بأنَّ هذه الهياكل هي المُدبِّرة لكُلِّ ما في عالم الكون.

3 ـ **أصحاب الأشخاص:** وزعموا أنَّه إذا كان لابُدَّ من مُتوسِّط مرئي فالكواكب، وإنْ كانت مرئيَّة، إلاَّ أنَّها قد تُرى في وقت دون وقت طُلُوعها وأُفُولها وظُهُورها نهاراً، فدعت الحاجة إلى وُجُود أشخاص مُشاهدة نصب الأعين، تكون وسيلة إلى الهياكل، التي هي وسيلة إلى الرّوحانيَّات، التي هي وسيلة إلى الله، فاتَّخذوا لذلك أصناماً وصُوراً على صُور الهياكل السّبعة، كُلّ صنم من جسم مُشارك في طبيعته لطبيعة الكواكب[2].

---

(1) الأديان في القرآن، د. محمود بن الشّريف، ص 16 ـ 19، دار المعارف، مصر، 1970.
(2) الأديان في القرآن، ص 162 ـ 163.

إنَّ أهمَّ الفرائض الدِّينيَّة التي تُحدِّدها الدّيانة الصّابئيَّة المندائيَّة هي :

1 ـ التّعميد أو الصّباغة .

2 ـ الصّلاة ، وتشمل الوُضُوء (الرّسم بالماء) والتّبريكات .

3 ـ التّضحية ؛ وتُشكِّل الزّكاة والصّيام[1] .

وللتّعميد مغزيان : أوّلهما الطّهارة الجسديَّة ، وثانيهما الطّهارة الرُّوحيَّة[2] ؛ إذْ يكسب فيه المتعمد صفة دينيَّة مُقدَّسة تُلازم سائر الشّعائر الأُخرى كالصّلاة والصّيام .

ويُرجعون التّعميد (المصبتا) إلى آدم عليه السّلام[3] ، وبالتّعميد يصبح المندائي مندائيّاً بحقٍّ ، فهو عماد الدِّين الصّابئي ، وبه تُمحى الخطيئة ، ويُغفر له بعض الخطايا والآثام ، ويمنحه الحياة الطّاهرة الطَّيِّبة ، وعند التّعميد ؛ تُقرأ مجموعة نُصُوص من كتاب الأنفس (سيدرا أدنشاماثا) الذي يعتقدون نُزُوله على (آدم) عليه السّلام .

ويجري التّعميد بالكيفيَّة الآتية :

يغطس المُتعمِّد ـ بواسطة الكاهن ـ ثلاث غطسات في الماء الجاري ، وثلاث ارتماسات لجبهة المُتعمِّد ، وشرب ثلاث جرعات من الماء

---

(1) مفاهيم صابئيَّة مندائيَّة ، ص 107

(2) راجع الموجز في تاريخ الصّابئة المندائيَّة ، ص 111 ، الصّلاة المندائيَّة ، ص 7 ـ 8 ، الأديان ، ص 189 ـ 190 ، مفاهيم صابئيَّة مندائيَّة ، ص 108 .

(3) الصّلاة المندائيَّة ، ص 10 .

الجاري، تُعطى بكفٍّ الكاهن اليُمنى، وأخذ العهد منه، ثُمَّ تتويجه بإكليل مُظفّر من الآس، ووَضْع اليد اليمنى على رأسه، وأخذ العهد منه مرَّة أُخرى، ويخرج المُتعمِّد والكاهن من ضفَّة النّهر؛ حيثُ يتمُّ مسح جبهته بزيت السُّمسُم المُقدَّس (مشا)؛ ليُعبِّر عن بركة الله، وأخذ العهد منه ثالثة، ثُمَّ تقديم الخُبز المُقدَّس (بهثا)، وإعطاؤه الماء المُقدَّس (ممبوها)، وبعدها؛ يشهد المُتعمِّد شهادة التّعميد، ثُمَّ يطلب التَّوسُّل من الخالق، وبعدها؛ يُعطي الكاهنُ العهدَ إلى المُتعمِّد، وكذلك يُعطي الكاهنُ العهدَ إلى المساعد ـ أيْ مساعد الكاهن ـ وتُصاحب كُلُّ هذه الطُّقُوس صلوات وأدعية وتراتيل[1].

أمَّا درجات رجالهم الدِّينيَّة؛ فهي:

1 ـ التّرميدا: وهي أقلُّها علماً، وتُعطى للمبتدئين.

2 ـ الكنزفراء: وهي الدّرجة الوُسطى من العُلُوم الدِّينيَّة.

3 ـ الرّشمة: (أيْ رئيس الأُمَّة)، ولا وُجُود لها عندهم؛ لصُعُوبة تحصيلها من النّاحية العلميَّة والدِّينيَّة[2].

ويُؤدِّي الصّابئي ثلاث صلوات في اليوم، وأوقاتها في الصّباح الباكر بعد بُزُوغ الشّمس مُباشرة، وفي الظّهيرة عند الزّوال والعصر قبل الغروب[3]. "وتقتصر صلاة المندائيِّيْن على الوُقُوف والرُّكُوع والجُلُوس

(1) انظر، التّعميد المندائي، الشّيخ رافد الشّيخ عبد الله الشّيخ نجم، ص 6، وما بعدها.

(2) الموجز في تاريخ الصّابئة المندائيِّين، ص 127 ـ 128.

(3) الصّلاة المندائيَّة، ص 15، الموجز في تاريخ الصّابئة المندائيِّين، ص 102.

علـى الأرض دون السُّجُود، وتستغرق قـراءة الأذكـار والأدعيــة فيــها ساعة ورُبع ساعة تقريباً"[1].

كما أنَّهم يذهبـون إلـى القـول إنَّـها فُرضـت عليـهم خمـس مـرَّات يوميَّاً، إلاَّ أنَّه بعد مجيء النَّبي يحيى - عليه السَّلام - أصبحت ثلاثاً، بعد أنْ ضمَّ بعضـها إلـى بعـض[2]، ويسـتقبلون جهـة الشَّمال في صلاتـهم، وعلى المُصلِّي ارتداء غطاء على رأسه احتراماً لله[3].

يقول الشَّيخ رافد الشَّيخ عبد الله عضو المجلـس الرَّوحـاني للطَّائفـة الصَّابئيَّة في العراق "إنَّ قبلتنـا باتِّجـاه الشَّـمال تُمثِّل - في اعتقادنـا - وُجُـود عـالم النُّور بـهذا الاتِّجـاه، ودليلنـا إلـى الشَّــمال جَغرافيَّـاً هـو النَّجـم القطبي، أو نجعل يدنا اليمنى باتِّجاه شُرُوق الشَّمس"[4].

وتقتصر صلاة الصُّبح علـى الوُقُـوف باتِّجـاه القبلـة، مـع السُّجُـود (الانحناء) كُلَّما ذُكرت كلمة السُّجُود، أمَّا صلاة الظُّهر؛ فتُتلى في وقـت الظُّهر، وبعد سبع ساعات من صلاة الصُّبح؛ حيثُ يقف المُصلِّي باتِّجاه القبلة مـع السُّجُود (الانحنـاء) كُلَّمـا ذُكـرت كلمـة السُّجُود أيضـاً، أمَّـا صـلاة العصـر، فتُتلـى قبـل زوال الضِّيـاء، ويفعـل المُصلِّـي مـا أدَّاه في الصَّلاتَيْن السَّابقتَيْن في صلاة العصر[5].

---

(1) الأديان، ص 190.

(2) الأديان، ص 190، الصَّلاة المندائيَّة، ص 18، موسوعة العقَّاد الإسلاميَّة، مج1، ص 413.

(3) مفاهيم صابئيَّة مندائيَّة، ص 121.

(4) قال لي ذلك خلال مُقابلتي معه في منزله بتاريخ 2/ 2/ 1996.

(5) الصَّلاة المندائيَّـة، الصَّفحـات 24، 26، 27، وانظـر: رومـي، غضبـان، تعـاليم دينيَّـة لأبنـاء الصَّابئيَّة، ص 32، وما بعدها، مطبعة الجاحظ، بغداد، 1972، وانظر: دراور، اللَّيدي، الصَّابئة المندائيُّون، ص 351، ترجمة نعيم بدوي وغضبان رومي، مكتبة خيَّاط، بيروت، ص 64.

ويُشترَط الوُضُوءُ قبل كُلِّ صلاة، وهيئته تُشابه كثيراً الوُضُوء الإسلامي؛ إذْ يتمُّ أوّلاً استحضار النِّيَّة في القلب، ثُمَّ تُغسَل اليدَيْن مرَّة واحدة، أمَّا الوجه؛ فيُغسل ثلاث مرَّات، ثُمَّ يمسح على الجبهة بنبل أطراف أصابع اليد اليمنى، ومن اليمين إلى اليسار، ويُعاد المقطع ثلاث مرَّات، وبعدها يغسل الأذنَيْن ثلاثاً، ثُمَّ يستنشق الماء ثلاث مرَّات، ويغسل مقعده مرَّة واحدة، وبعدها يغسل الفم؛ أيْ أخذ الماء باليد اليمنى إلى الفم، ويرشّ على الجهة اليسرى، ويعاد ثلاث مرَّات، ثُمَّ يمسح على الرّكبتَيْن، ويعاد ثلاث مرَّات، ويمسح على الرّجلَيْن (الكاحلَيْن)، ويعاد ثلاث مرَّات، ثُمَّ يرمي الماء على الرّأس بأصابع اليدَيْن، وأخيراً؛ يغمس المُتوضِّئ قدمه اليمنى بالماء، ثُمَّ اليسرى[1]، ويمكن اختصار الوُضُوء إلى مرَّتَيْن بكرة وعشيّاً[2].

وللصّلاة نواقض مثل الحيض عند المرأة، والجنابة عند الرّجل، وفترة النّفاس عند المرأة والأيَّام المُحرَّمة (المُبطلات)[3]، كما توجد

---

(1) الصّلاة المندائيَّة، ص 16، وما بعدها، الأديان، ص 188 ـ 189، مقالة خطّيّة بعنوان (الدّيانة المندائيَّة)، مكتوبة بخطِّ اليد، بقلم الشّيخ رافد الشّيخ عبد الله، عضو المجلس الرّوحاني للطّائفة الصّابئيَّة.

(2) مفاهيم صابئيَّة مندائيَّة، ص 116.

(3) الأيَّام المُحرَّمة هي أيَّام يُحرَّم فيها إجراء جميع الطُّقُوس الدِّينيَّة عدا الوُضُوء للصّلاة، وصلاة عيد شوبان، والتّعميد الشّخصي، وعدد الأيَّام المُحرَّمة (36) يوماً، مُتفرِّقة على جميع أيَّام السّنة، ومنها (12) يوماً تُسمَّى ثقيلة: وهي أيَّام السّادس والسّابع من شُباط، والسّادس والعشرون والسّابع والعشرون والثّامن والعشرون والتّاسع والعشرون والثّلاثون من أيلول، واليوم الثّاني من شهر كانون الأوَّل، انظر الصّلاة المندائيَّة، ص 43.

مُبطلات للصّلاة مثل الكلام أثناء الصّلاة والبكاء والأكل أو الشّرب والضّحك، وكُلّ ما يخلُّ بقُدسيَّة الصّلاة، أو يخالف الأدب"[1].

ومن مُفسدات الوُضُوء، البول، والغائط، وخُرُوج الرّيح، ولمس الحائض، والنّفساء، واللّحم الأجنبي، والأكل قبل الصّلاة[2].

ويُعدُّ يوم الأحد (الهيشيا) يوماً مُقدَّساً لديهم؛ كالمسيحيِّين؛ إذْ تقام فيه غالبيَّة الطُّقُوس الدِّينيَّة، ويُعطَّل العمل فيه، وتُقام فيه صلاة خاصَّة به، تُتلى بعد الانتهاء من صلاة الصّبح، أو صلاة الظّهر، أو صلاة العصر ويُفضِّلون إقامتها في (المندى)[3]، ولديهم صلوات مُستحبَّة كثيرة[4].

وتُعدُّ الزّكاة (صدقات يا وزريوا أو زدقا) من أركان دينهم؛ إذ يتقرَّبون بها إلى الله (الحيّ العظيم) طَلَباً للأجر، وغفران الخطايا.

وتعني الزّكاة (العطاء ممَّا يملكه الفرد الصّابئي)[5]، كما تعني - أيضاً، بنظر المندائيِّين - الاعتراف بفضل الواهب الأعظم، ومحاولة التَّقرُّب إليه، والاقتداء به[6].

---

(1) الصّلاة المندائيَّة، ص 18.

(2) الأديان، ص 189.

(3) الصّلاة المندائيَّة، ص 28.

(4) مثل صلاة عيد السّتّ أيَّام، أو ليلة القدر؛ إذْ تقتصر على الوُقُوف - فقط - مع قراءة التّراتيل الدِّينيَّة، وصلاة الكاهن، وهي أطول صلاة لديهم، وقد عدّها الشّيخ رافد الشّيخ عبد الله بخمس وأربعين صلاة، راجع الصّلاة المندائيَّة، ص 37.

(5) مفاهيم صابئيَّة مندائيَّة، ص 121.

(6) المصدر ذاته، ص 122.

والصّدقة ـ بالمفهوم الدِّيني ـ هي الهبة الصّادقة، المادّيَّة أو المعنويَّـة، تلك الهبة التي يجب على كُلِّ مندائي تقديمها لإخوته وجيرانـه ومعارفه وكُلّ الذين يستحقُّونها، وأوَّل مبدأ من مبادئ العطاء هو أنْ يُزكِّي الفـرد نفسه من الحقد والبُغض؛ لكي تكون زكاته مقبولة[1].

ومن شرُوط تقديم العطاء:

1 ـ أنْ يُقدَّم ابتغاء وجه الله تعالى، وطلباً للأجر وغفران الخطايا.

2 ـ أنْ تُقدَّم الهبات سرّاً، ولا يجوز التّباهي أو التّفاخر بذلك.

3 ـ يجوز تقديـم الـهبات عَلَنـاً في مُناسبات خاصَّة كـالولائم التـي تُقام في الأعياد، أو الأعراس، أو بمُناسبة الوفاة[2].

كمـا يُحبِّذون التَّصدُّق في أيِّ فُرصـة تحتـاج إلـى إسـداء المسـاعدة للمحتـاجين، فتُعـدّ ـ حينئـذ ـ واجبـاً دينيَّـاً، فقـد وَرَدَ في كتابـهم المُقـدَّس (كنزاريا) ما نصُّه:

"كُلُّ مَنْ وَهَبَ صَدَقَةُ تقيه من البُؤس الكبير".

"هبوا الخُبز والماء والمأوى للمحتاجين من النّاس".

"هـب صَدَقَـةً للعـاني، وكُـنْ دليـلاً للأعمـى، وإنْ وَهَبْتُـم صَدَقَـةً ـ يا مُختارون ـ فلا تُجاهروا، إنْ وَهَبْتُم بيمينكـم فـلا تُخـبروا شـمالكم، وإنْ وَهَبْتُم بشمالكم فلا تُخبروا يمينكم"[3].

---

(1) مفاهيم صابئيَّة مندائيَّة، ص 122.

(2) المصدر ذاته، الصّفحة نفسها، وما بعدها، بتصرُّف.

(3) النُّصُوص منقولة من المقالة الخطّيَّة للشّيخ رافد الشّيخ عبد الله، عضـو المجلس الرّوحـاني للطّائفة الصّابئيَّة في العراق.

يحتلُّ الصّوم عندهم أهميَّة دينيَّة كُبرى، فالصّوم الكبير يُمثِّل لديهم الكفّ عن الأذى بكُلّ صُوره، والامتناع عن إتيان القبائح والمُنكرات، ومنها صوم اليدَيْن عن القتل والسّرقة، وصوم الرُّكبتَيْن عن السُّجُود للأصنام، وصوم القلب عن الباطل والفتن والنّميمة، والصّوم عن رؤية الباطل من الفحشاء والمُنكر والغَمْز واللَّمْز، وصوم الآذان عن سماع الشَّرّ، وصوم الجسم عن الزّنا، وصوم الرّجلَيْن عن الذّهاب إلى الباطل[1].

أمَّا الصّوم الصّغير؛ فهو الامتناع عن أكل اللُّحُوم في أيَّام معدودات عددها اثنان وثلاثون يوماً، وهي - عادةً - تسبق الأعياد الدِّينيَّة، أو تلحقها[2]. ويُسمّون أيَّام الصّيام (مُبطلات)؛ حيثُ يبطل فيها النَّحْر[3].

وذكر ابن النّديم أنَّهم يصومون ثلاثين يوماً مجتمعة، وقيل مُتفرِّقة أوَّلها لثمان ليال يمضين من آذار، وسبعة أيَّام أوَّلها التّسع بقين من كانون الأوَّل، وسبعة أيَّام أوَّلها الثّمان ليال يمضين من شباط[4]، ويختمون صيامهم بالصَّدَقَة والذّبائح[5].

---

(1) الموجز في تاريخ الصّابئة المندائيّين، ص 109، مفاهيم صابئيّة مندائيّة، ص 23، وما بعدها.

(2) مفاهيم صابئيَّة مندائيَّة، ص 125.

(3) رومي، غضبان، تعاليم لأبناء الصّابئة، ص 34، وما بعدها، مطبعة الجاحظ، بغداد، 1972، دراور، اللّيدي، الصّابئة المندائيُّون، ص 352، ترجمة نعيم بدوي وغضبان رومي، مكتبة خيَّاط، بيروت، 1964، مفاهيم مندائيَّة، ص 125.

(4) وهو نفس اليوم الذي عرفه النّصارى الشّرقيُّون ليبدؤوا بواسطته في تحديد اليوم الأوَّل للصّيام الكبير، انظر: الصّيام من البداية حتَّى الإسلام، ص 89-90.

(5) الفهرست لابن النّديم، ص 199.

أمَّا مواعيد أيَّام صيامهم حسب أشهر السّنة المندائيَّة[1]؛ فهي :

1 ـ شباط من 1 ـ 14، أربعة عشر يوماً بعد العيد الكبير[2].

2 ـ آذار 25.

3 ـ نيسان؛ إذْ يصوموا أيَّاماً غير مُحدَّدة عَدَداً.

4 ـ أيَّار 1، 2، 3، 4 منه قبل العيد الصّغير[3].

5 ـ سيوان أو حزيران، ويصومون فيه أيَّاماً من غير تحديد.

6 ـ تمُّوز 9، 15، 23.

7 ـ آب، ويصومون فيه أيَّاماً غير مُحدَّدة العَدَد.

---

(1) تبدأ السّنة المندائيَّة بشهر نيسان، وتحتوي على (365) يوماً فقط، وليس فيها سنة كبيسة، وهي تُقسم إلى الشُّهُور، وفي كُلِّ شهر (30) يوماً، ويعتبرون الخمسة أيَّام الزّائدة شهراً يُسمُّونه عيد الخليقة، وتقع بين الثّلاثين من شهر (شمبلته) أيلول واليوم الأوَّل لشهر (قينة) تشرين الأوَّل، أمَّا بدء التّاريخ عندهم؛ فينقسم إلى ثلاثة أيضاً:

الأوَّل: بدء الخليقة، الثّاني: عام طوفان نوح، الثّالث: ولادة يحيى عليه السّلام، الأديان، ص 193 ـ 194، الموجز في تاريخ الصّابئة المندائيّين، ص 151، راجع مفاهيم صابئيَّة مندائيَّة، ص 38، وما بعدها.

(2) العيد الكبير ويُسمَّى (الصّحوة)؛ وهو يُمثِّل لديهم ذكرى هبة الله تعالى الحياة، وتبدأ شعائره من اليوم الأخير للسّنة، ويستمرُّ لليوم الأوَّل من السّنة الجديدة، وفيه يرتدون الملابس البيض، ويتعمَّدون بالماء، وينحرون الذّبائح، ويصومون عن أكل اللّحوم، راجع الصّابئة المندائيون، اللّيدي دراور، ص 145، مفاهيم صابئيَّة مندائيَّة، ص 142.

(3) وهو عيد الأزهار، وموعده الأصلي اليوم الثّامن عشر من شهر أيَّار، ويُسمُّونه (هبة الله الصّغرى)، وهو ذكرى نُزُول الملاك الرّسول جبريل (هيبل زيوا) إلى الأرض بأمر الله تعالى، ثُمَّ عاد إلى السّماء مُبشِّراً بازدهار الكُرُوم، وانتشار النّور، واندحار الظّلام، انظر مفاهيم صابئيَّة مندائيَّة، ص 142 ـ 143، الصّابئة المندائيُّون، ص 150.

8 ـ أيلول 26، 27، 28، 29، 30 خمسة أيّام قبل عيد الخليقة (البنجة)[1].

9 ـ تشرين أوّل 2 يوم واحد بعد عيد الهبات[2].

10 ـ طابيت أو كانون الثّاني 28، 29، يومان قبل العيد الكبير[3].

والتّقسيم الحديث للصّيام نوعان:

1) (صوماريا) الصّيام العظيم: إذْ يقولون بوُرُوده في الكتاب المُقدَّس (كنزاريا) القسم الأيمن / 110 ما نصُّه:

"أمسكوا أعينكم عن الغَمْز واللّمْز، ولا تنظروا بسُوء، أو تعملوه"، وكذلك النّصّ المُرَقَّم 111 و112 و113 و114 و115 و116 و117 و118 من القسم الأيمن.

2) (صوم مبطلاتا) صوم المُبطلات: ويمتنعون فيه عن أداء المراسم الدِّينيَّة، وعن أكل اللُّحُوم ومُشتقَّاتها، وعند الاقتضاء عن العلاقات الجنسيَّة خلال يوم أو أكثر من الشُّرُوق إلى الشُّرُوق[4].

---

(1) وهو ذكرى الأيَّام التي بلغ بها الخَلْق تمامه، ويقع هذا العيد بين الشّهرَيْن الثّامن والتّاسع، أيْ في نهاية الثّامن، ويحتفل به بإقامة التّعميد والصّلوات وتقديم الطّيِّبات على أرواح الموتى، انظر: مفاهيم صابئيَّة مندائيَّة، ص 144.

(2) وهو عيد التّعميد، وهو ذكرى تعميد آدم والآباء الصّالحين القدامى، ويقع هذا العيد في نهاية الشّهر العاشر من السّنة، انظر مفاهيم صابئيَّة مندائيَّة، ص 145.

(3) مفاهيم صابئيَّة مندائيَّة، ص 125.

(4) مُقتبس من المقالة الخطِّيَّة للشّيخ رافد الشّيخ عبد الله.

أمَّا شعيرة الحجِّ؛ فلا أثر لها في تعاليمهم الدِّينيَّة، يقول الدُّكتور صبيح مدلول بادي[1] لم تُشرِّع (الكنزاريا) ولا سائر الكُتُب الدِّينيَّة الصّابئيَّة المُقدَّسة تشريعاً يفرض عليهم الحجَّ أو القصد بالمفهوم الإسلامي إلى مكان مُعيَّن مُحدَّد، ولكنَّنا نُحبِّذ زيارة مرقد نبي الله يحيى عليه السّلام المُوجُود في أروقة المسجد الأموي بدمشق، كما نُحبِّذ زيارة المراقد المُشرَّفة لأهل البيت عليهم السّلام في كربلاء والنّجف والكاظميَّة في العراق.

(1) أُستاذ صابئي يعمل مُدَرِّساً في جامعة بغداد، كُلِّيَّة اللُّغات.